

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY



3 8534 01001 2726

03-8101

Jan 9

مكتبة
الجامعة الأمريكية



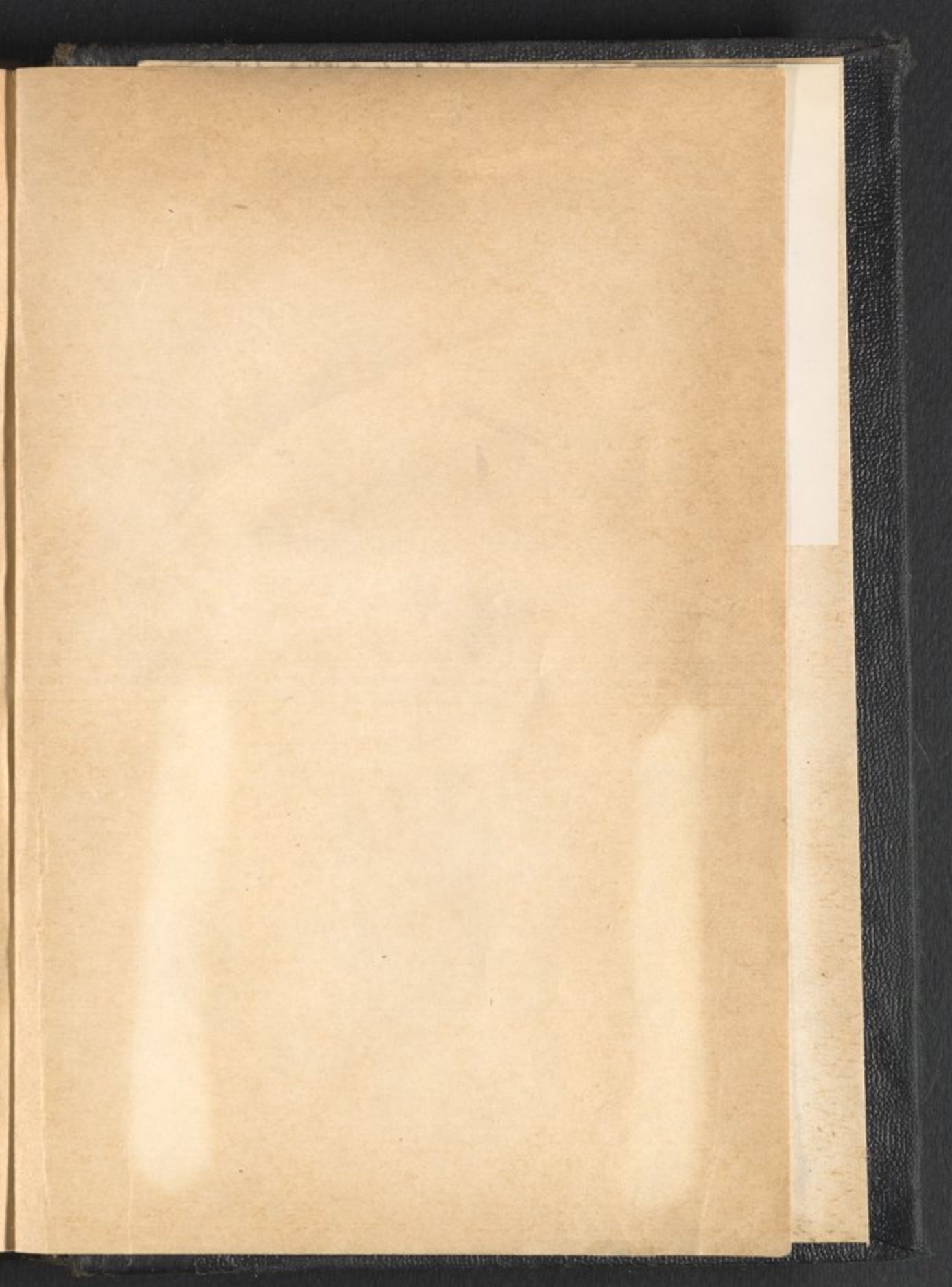
FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الأمريكية بالقاهرة

n

2

11



PJ

7828

K52

T35

1954

توفيق الحكيم

al-Hakim, Tawfiq

Tahta shams

al-fikr

تحت شمس الفكر

الناشر — مكتبة الآداب بالجاميزت: ٤٢٧٧٧

المطبعة النفوسية

١ مكة النابري بالاسمة المدرجة

OCLC
60506482

B 12532976
13917274

الطبعة الرابعة
أضيفت إليها فصول جديدة

١٩٥٤ ع

٨١٦٦
٢٠٠٤

39493

(٣)

كتب للمؤلف

نشرت في اللغة العربية

- | | | |
|--|---|------------------------|
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) | { | محمد |
| الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٣٦) | | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة دار الكتب عام ١٩٣٤) | { | شهرزاد |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤) | | |
| الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢) | | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة مصر عام ١٩٣٣) | { | أهل الكهف |
| الطبعة الثانية : (مطبعة الاعتماد عام ١٩٣٣) | | |
| الطبعة الثالثة : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٠) | | |
| الطبعة الرابعة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥) | | |
| الطبعة الخامسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٨) | | |
| الطبعة السادسة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٣) | | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة الرغائب عام ١٩٣٣) | { | عودة الروح
في جزئين |
| الطبعة الثانية : (مطبعة المعارف عام ١٩٤٦) | | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) | { | تحت شمس الفكر |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) | | |
| الطبعة الثالثة : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥) | | |
| الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٤) | | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) | { | تاريخ حياة معدة |
| الطبعة الثانية : (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٥) | | |

تابع الكتب التي نشرت في اللغة العربية

- | | | |
|--|---|------------------------|
| الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨) | } | عهد الشيطان |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | | |
| (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩) | } | يراكسا أو مشكلة الحكيم |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٣٩) | | |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠) | } | راقصة المعبد |
| (مطبعة مصر عام ١٩٤٠) | | |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٠) | } | نشيد الإنشاد |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | | |
| الطبعة الثالثة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢) | } | حمار الحكيم |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١) | | |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | } | سلطان الظلام |
| (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | | |
| (مطبعة التوكل عام ١٤١) | } | من البرج العاجي |
| (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | | |
| (مطبعة دار الهلال عام ١٩٣٤) | } | أهل الفن |
| الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٢) | | |
| الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤) |] | بجماليون |
| الطبعة الأولى : ويشمل قصص : سر المتحجرة ، نهر الجنون ، رصاصة في القلب ، جنسنا اللطيف (مطبعة الاعمال عام ١٩٣٧) | | |
| بالاشتراك مع الدكتور طه حسين (مطبعة دار النشر الحديث عام ١٩٣٦) |] | القصر المسحور |
| الطبعة الأولى : ويشمل قصص الخروج من الجند أو المهمة أمام شبك النداكر . الزمار . حياة تحطمت (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧) | | |
| | } | مسرحيات |
| | | |

تابع السكتب التي نشرت في اللغة العربية

- الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٧)
- الطبعة الثانية : لحساب وزارة المعارف العمومية (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر عام ١٩٣٧)
- الطبعة الثالثة : (طبعة مدرسية) (النموذجية ١٩٤٩)
- الطبعة الرابعة : (النموذجية ١٩٥٣)
- يوميات نائب في الأرياف
- الطبعة الأولى : (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٣٨)
- الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤١)
- الطبعة الثالثة : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
- الطبعة الرابعة : (المطبعة النموذجية عام ١٩٥١)
- عصفور من الشرق
- الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
- الطبعة الثانية : (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)
- سليمان الحكيم
- الطبعة الأولى : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٣)
- الطبعة الثانية : (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
- زهرة العمر
- (مطبعة التوكل عام ١٩٤٤)
- رصاصه في القلب
- (مطبعة سعد مصر عام ١٩٤٤)
- الرباط المقدس
- (مطبعة المعارف عام ١٩٤٥)
- حمارى قال لى
- (مطبعة التوكل عام ١٩٤٥)
- شجرة الحكم
- (المطبعة النموذجية عام ١٩٤٩)
- الملك أوديب
- قصص توفيق الحكيم (المجموعة الأولى والثانية) (مطبعة دار سعد بمصر ١٩٤٩)
- مسرح المجتمع
- (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٠)
- فن الادب
- (المطبعة النموذجية عام ١٩٥٢)
- ذكريات الفن والقضاء
- (مطبعة المعارف عام ١٩٥٣)
- عصا الحكيم
- (مطبعة الهلال عام ١٩٥٣)

كتب للمؤلف

نشرت في لغة أجنبية

شهرزاد
ترجم ونشر في باريس عام ١٩٣٦ بمقدمة لجورج
ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية . في دار نشر نوفيل
ايديسيون لاتين وترجم الى الانجليزية ونشرت
مختارات منه في دار النشر (يلوت) بلندن ثم في دار
النشر (كراون) بنيويورك . في عام ١٩٤٥

عودة الروح
ترجم ونشر بالروسية في ايندجراد عام ١٩٣٥
وبالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧ في دار (فاسكيل
للنشر) وبالانجليزية ونشرت مختارات منه في لندن عام ١٩٤٢

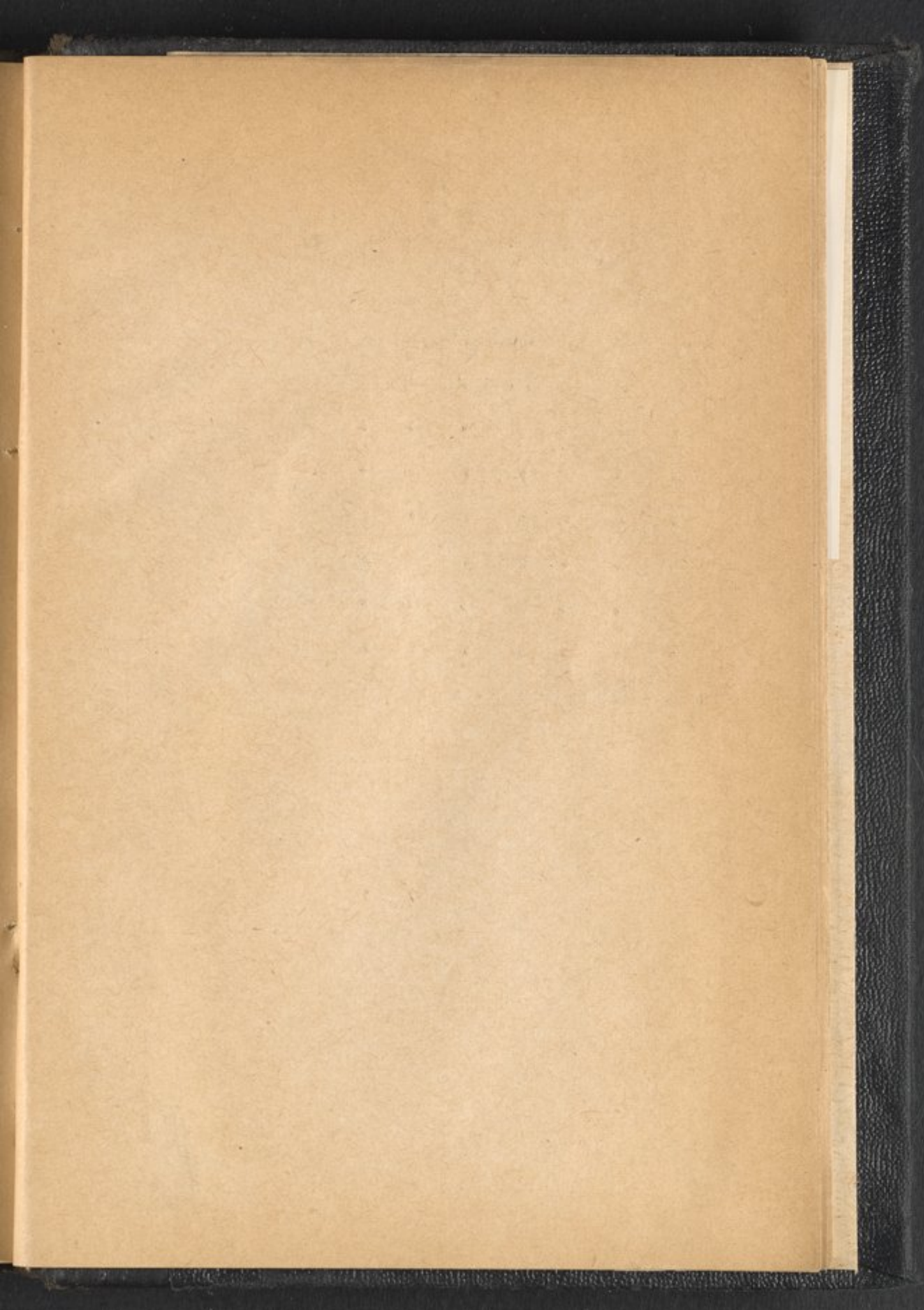
يوميات نائب
في الأرياف
ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٣٩ (طبعة أولى) وفي عام
١٩٤٢ (طبعة ثانية) وترجم ونشر باللغة العبرية عام ١٩٤٥
وترجم ونشر باللغة الانجليزية في (دار هارفل) للنشر
بلندن عام ١٩٤٧ وترجم الى الأسبانية في مدريد عام ١٩٤٨

أهل الكهف
ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤٠ بتمهيد تاريخي
لجاستون فييت الأستاذ بالكلية دي فرانس ثم ترجم
الى الإيطالية بروما عام ١٩٤٠

عصفور من الشرق) ترجم ونشر بالفرنسية عام ١٩٤١

تابع المكتب التي نشرت باللغة الأجنبية

بجماليون	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
أوديب	:	ترجم ونشر بالفرنسية في باريس عام ١٩٥٠
سلمان الحكيم	:	» » » » » » »
نهر الجنون	:	» » » » » » »
عرف كيف يموت	:	» » » » » » »
الخرج	:	» » » » » » »
بيت النمل	:	» » » » » » »
الزمار	:	» » » » » » »
« في مجلد بعنوان مسرحيات عربية عن دار نشر « نوفيل ايديسيون لاتين بباريس »		

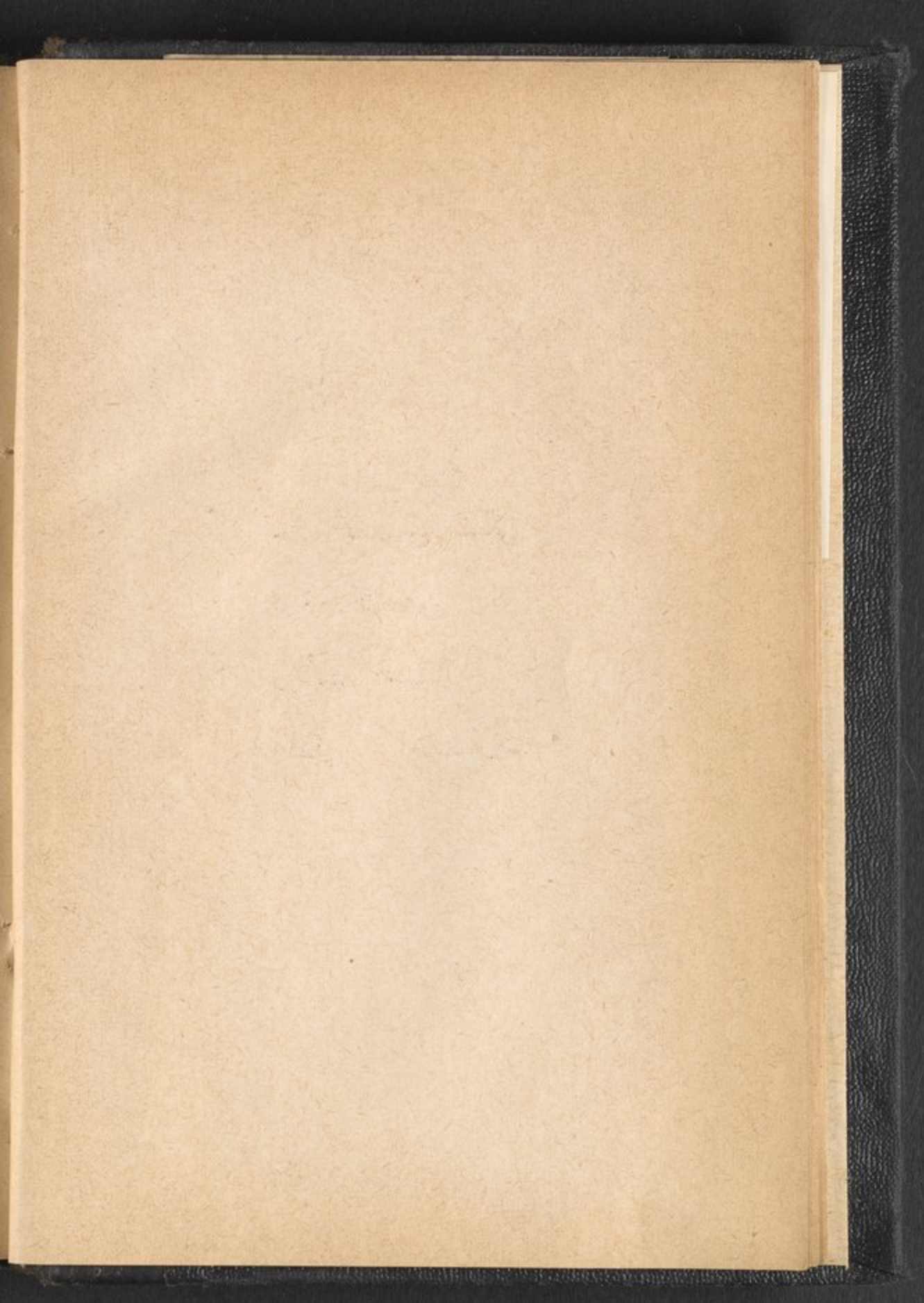


تحت شمس الفكر

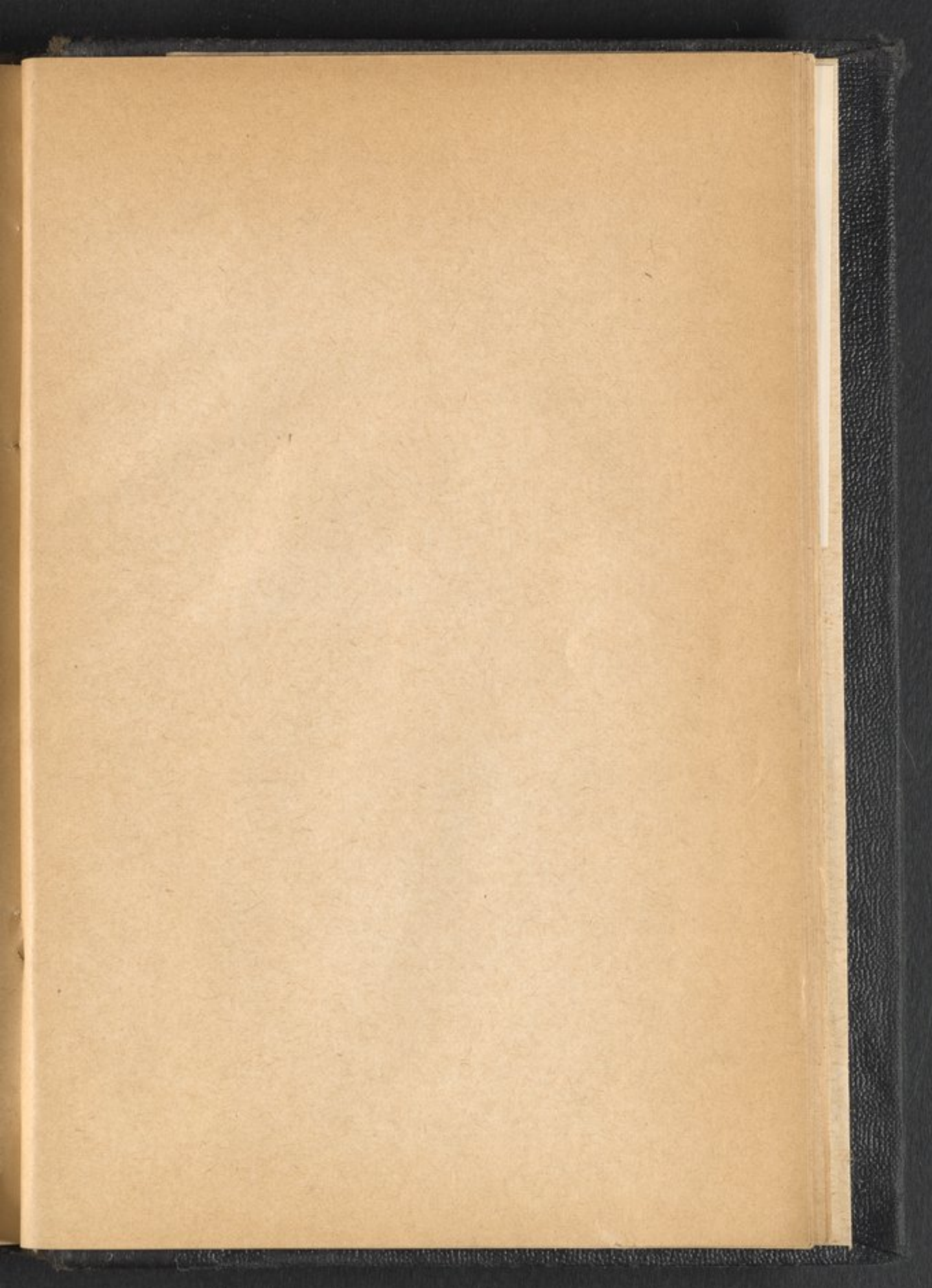
عرفت النور

ورأيت الجمال

ولكني .. احترقت !



في الدين



منطقة الإيمان

حينما كنت وكيلا للنائب العام كنت أرى عجباً في قاعات المحاكم وجلسات التحقيق، وكنت أفكر كثيراً في أمر ذلك الشرير الذي طالعت صحيفة حياته فاذا آثام ودماء تسيل منها، ومع ذلك يقف أمامي متطلعاً إلى السماء، ويأبى أن يقسم بالمصحف كذباً. هذا الآدمي قد انطلقت غرائزه الدنيا لا يقوم لها شيء، لكن بقيت برغم هذا في نفسه منطقة عذراء لم يتطرق إليها فساد: منطقة العقيدة ! أهنك إذن حد فاصل بين العقيدة والغريزة ؟ كذلك كان يدهشني أمر صديق من خيرة القضاة : كثير الورع ، حريص على العبادة والصلاة ، ومع ذلك عقله حرّاً من كل قيد . ما يدور بيننا حديث في الخالق والخلقة حتى يذهب هو في التدليل والمنطق كل مذهب إلى أن يقع في الاحاد وإنكار الجنة والنار . وينادي المؤذن بالصلاة فإذا القاضى يسرع مخلصاً إلى ذلك الدين الذي قال فيه منذ لحظة قولاً عظيماً . أهنك إذن حد فاصل بين العقيدة والعقل ؟

إذا قلنا مع القائلين إن العقل والقلب والغريزة ملكات ثلاث منفصلة إحداها عن الأخرى ، فإن هذا القول يؤدي حتماً إلى نتائج غريبة قد تعدل من نظرتنا إلى الأشياء . ولعل أول ما يفهم من هذا الاستقلال بين الملكات تبين ألوان الحقيقة لدى كل منها

فما يصدق عند القلب ، قد يصدق عند العقل . بل إن كل ملكة من تلك الملكات تسيطر على عالم مختلف جد الاختلاف عن عالم الأخرى . يقابل ذلك في المحسوسات تلك الحدود والحواجز بين الحواس ، فعالم البصر منفصل عن عالم السمع ، والحقيقة البصرية غير الحقيقة السمعية ، وما يعتبر موجوداً في منطقة العين لا يعتبر موجوداً في منطقة الأذن فهذا الحجر الساكن ، حقيقة تراها العين المبصرة ، ولكن الأذن لا تدرك ولن تدرك هذه الحقيقة ، ولن تعرف مطلقاً ما هو الحجر وما شكله ، لأن عالمها وهو عالم الأصوات لا يخطر له على بال إن في الوجود عالماً يسمى عالم المرئيات . فالعقل لا يدر إلا ما يلائم وظيفته وما يخضع لمقاييسه ، والحقيقة العقلية ليست الحقيقة المطلقة وليست الحقيقة كلها ، ولكنها الحقيقة التي يستطيع العقل أن يراها من زاويته . فإذا كانت العقيدة مرجعها القلب ، فإن العقل لن يرى منها إلا الشطر الذي يستطيع أن يراه ، ويظل محجوباً عنه الشطر الواقع في دائرة القلب . فوجود الخالق الجبار المنتقم الرحمن اللطيف لا شك فيه عند القلب ، أما العقل فإن استطاع بالمنطق أن يتصور وجود الخالق ، فإنه قد يرتاب في صحة تلك الصفات المنسوبة إليه ، وقد يراها في منطقة صفات آدمية أسبغها البشر على خالقهم إجلالاً له ، لأنهم وهم بشر لا يملكون غير تلك الصفات التي هي في عرفهم مرادف الكبار والتقدير . أما حقيقة الخالق فأمر بعيد عن مقدرة العقل ، وهل يستطيع الجزء

أن يرى الكل؟ هل تستطيع السكبد في جسم الإنسان مثلاً أن تحيط إدراكاً بحقيقة شكل الإنسان الخارجى وهى جزء منه داخل فيه؟ إن كل ما تدركه السكبد هو وجود تلك المواد التى تمر بها كل يوم فتحولها إلى إفرازات دون أن تدرك من أين جاءت ولا إلى أين تذهب. العقل أيضاً يرى الأحياء كل يوم تدور دورتها دون أن يدرك من أين جاءت ولا إلى أين تذهب. فالحقيقة العقلية أو العلمية لا يتجاوز علمها الكائنات التى تمر بالحواس، ومن يحمل العقل أكثر من قدرته فهو إنما يريد منه المستحيل، كمن يطلب إلى السكبد مضغ الطناب. فالحقيقة العقلية أو العلمية شئ، والحقيقة الإحساسية أو الدينية شئ آخر، وإن رجال الدين يقعون دائماً فى الخطأ إذ يسمون بسمة الظفر كلما قال رجال العلم قولاً لا يتفق مع الدين، ويقطعون تقطيب الغضب كلما نقض رجال العلم أسس الدين. وما أحراهم فى كلتا الحالين أن يسموا غير مكترئين بسمة الصفاء واليقين، ولم يعتقدوا تمام الاعتقاد أن العلم فى كلا الحالين كاذب عندهم وإن صدق، وأن لا شأن للعلم بهم، وأن الحقيقة الدينية بعيدة عن وسائل العلم ودائرة بحثه، وأن العقل يستطيع أن يهدم الدين كما يشاء دون أن يسمع القلب طريقة واحدة من طرق معوله، وأن أولئك الملحدون الذين سخروا عقولهم الكبيرة لتفنيد الدين وهدم أصوله والشك والتشكيك فى جوهره ووجوده، لم يستطيعوا لحظة واحدة أن يسكتوا صرخات القلب الحارة الصاعدة

إلى ذلك الموجود الأسمى الذى بيده نفوسهم . إن عقولهم كانت
ترغى وتزيد بالكلام المعقول والمنقول ، وقلوبهم فى معزل عن
كل هذا الصخب ، لا تشعر ولا تدرى شيئاً عن المعركة الحامية
القائمة فى تلك الرؤوس . فالتوفيق بين العلم والدين ضرب من
العبث . على أن اجتهد المجتهدين فى هذا السبيل لم يتعد ذلك الجانب
من الدين الخاضع بطبيعته لحكم العقل ، وهو الجانب الاجتماعى
المبنى على الأخلاق وما يتفرع عنه من فكرة الفضيلة والرديلة...
وهنا يتساءل الناس دائماً : ما الدين ؟ أهو شئ مفيد للبشر
فى أمر حياتهم ومعاشهم ؟ أم هو طريق لحل اللغز الأكبر
وسبيل للنفوذ إلى المجهول الأعظم ؟ فى الواقع أن كل دين من
الاديان المعروفة يتكون من هذين الوجهين فالدين باعتباره قانوناً
اجتماعياً ينظم الغرائز ويحفظ التوازن بين الخير والشر ، هو أمر
متعلق بذات الإنسان ، متصل إذن بعقله وعلمه . على أن عنصر
« الأخلاق » فى الأديان ليس كل جوهرها . فإن بعض البلاد قد
استطاعت أن تجرد فى « الأخلاق » غنى لها عن « الأديان »
إنما قوة الدين وحميقتة فى العقيدة والإيمان « بالذات الأزلية » .
هنا لا سبيل إلى الدنو من تلك « الذات » إلا عن طريق يقصر عنه
العلم الإنسانى ، بل يقصر عنه كل علم ، لأن العلم معناه الاحاطة
والذات الأبدية لا يمكن أن يحيط بها محيط ، لأنها غير متناهية
الوجود ، فلا اتصال بها عن طريق العلم المحدود مستحيل . ها هنا

يبدو عمل الدين ضرورة للبشر . إنى ما كتبت هذه الكلمة اليوم إلا لألفت نظر رجال الدين إلى وجوب التسامح والهدوء كلما قام باحث يتكلم في الدين عن طريق العقل ، فإن الشرق اليوم مقبل على حياة علمية واسعة مهادها المعاهد والجامعات ، ولا بد لنماء ملكة العقل من التفسير الحر الطليق ، كما أنه لا بد لحياة ملكة القلب من الشعور الحار العميق . فليترك رجال الدين المفكرين يفكرون كما يشاؤون ، ويثرثرون كما يريدون ، ويعرضون بضاعتهم الكلامية التي هي كل بهرجهم الآدمي الأجوف ، فإن كل هذا الضجيج لن يصل خبره إلى القلب الذي لا يفتر لحظة عن التسييح رغماً عنهم بالعقيدة التي ركبت عليها حياته النابضة ...

الدفاع عن الاسلام

قرأت لثلاث عشرة سنة خلت (١) قصة فولتير التمثيلية «محمد»،
فخجلت أن يكون كاتبها معدوداً من أصحاب الفكر الحر ، فقد سب
فيها النبي العربي سباقياً عجبت له ، وما أدركت له علة . لكن عجبني
لم يطل ، فقد رأيته يهديها إلى البابا بنوا الرابع عشر بهذه العبارات :
« فلتستغفر قد استك لعبد خاضع من أشد الناس إعجاباً بالفضيلة ،
إذ تجرأ فقدم إلى رئيس الديانة الحقيقية ما كتبته ضد مؤسس
ديانة كاذبة بربرية ، وإلى من ، غير وكيل رب السلام والحقيقة ،
أستطيع أن أتوجه بنقدي قسوة نبي كاذب وأغلاطه ؟ فلتأذن لي
قد استك في أن أضع عند قدميك الكتاب ومؤلفه ، وأن أجرو
على سؤالك الحماية والبركة ، وإني مع الإجلال العميق أجش وأقبل
قدميك القدسيتين » (فولتير ١٧ أغسطس ١٧٤٥)

وعلمت في ذلك الحين أن روسو كان يتناول بالنقد أعمال
فولتير التمثيلية ، فاطلعت على ما قال في قصة « محمد » علني أجد ما
يرد الحق إلى نصابه ، فلم أر هذا المفكر الحر أيضاً يدفع عن محمد
ما ألصق به كذباً ، وكأن الأمر لا يعنيه ، وكأن ما قيل في هذا
النبي لا غبار عليه ولا حرج فيه ، ولم يتعرض للقصة إلا من حيث
هي أدب وفن . ولقد قرأت بعد ذلك رد البابا بنوا على فولتير ،

(١) من تاريخ الطبعة الأولى لهذا الكتاب في عام ١٩٣٨

فالفيتة رداً رقيقاً كيساً لا يشير بكلمة واحدة إلى الدين . وكله حديث في الأدب . فعظم عجب الأمر فولتير ، وسألت نفسي طويلاً : أيستطيع عقل مشقف كعقل هذا الكاتب العظيم أن يعتقد ما يقول ، دين تبعه آلاف الملايين من البشر على مدى الأجيال ، هو في نظره حقاً دين كاذب ؟ ومبادئ إنسانية كالتى جاء بها الإسلام هى عنده حقاً مبادئ بربرية ؟ أم إنه التملق والزلفى والنفاق . وإن الزمن والتاريخ يضعان أحياناً أقنعة زائفة على نفوس تزعم أنها خلقت للدفاع عن حرية الفكر .

منذ ذلك اليوم وأنا أحس كأنى فجعت فى شيء عزيز لى : الإيمان بنزاهة الفكر الحر . ولقد كنت أحياناً ألتبس الأعذار لفولتير ، وأزعم أنه قال ما قال لأعن مجاملة أو ملق ، بل عن عقيدة وحسن طوية استناداً إلى علم خاطيء بأخبار النبي ، ولكن كتابه إلى البابا كان يتهمة اتهاماً صارخاً ، ويدع . مجالا للشك فى دخيلة أمره . إنى قرأت لفولتير كتباً أخرى كانت تكشف عن آراء حرة حقاً فى مسائل الأديان ، وتم عن روح واسعة الآفاق تذكره التعصب الذميم ، فما باله عندما عرض لذكر محمد والإسلام كتب شيئاً هو التعصب بعينه ، تعصب لدينه ، ذهب فيه إلى حد السجود وتقيل الأقدام ، لالرب العزة والخلق ، بل لبشر هو رئيس الكنيسة التى ما أرى أن فولتير كان فى ذات يوم من خدامها المخلصين ! هى الأطماع التى كانت تدفع فولتير فيما أرى إلى التمسح

باعتاب الملوك والبابوات ، ولقد يقدم ثمناً لذلك أفكاره الحرة أحياناً . منذ ذلك الحين وفولتير عندهم ، ولن أبرئه أبداً ، ولن أعده أبداً من بين أولئك العظام الذين عاشوا بالفكر وحده وللفكر . وأحسب أن التاريخ العادل سوف يحكم عليه هذا الحكم . على أن الذى يدعو إلى الدهش أكثر من كل هذا أن الشرق والإسلام وقفوا من الأمر موقف النائم الذى لا يعى ولا يشعر بما يحدث حوله ، فلم أر كاتباً من كتاب الإسلام قام فى ذلك الوقت يدفع عن دينه هذا الهراء الذى قال فولتير ؟ ويقذف فى وجه هذا الكاتب بالحقائق الباهرة القاطعة ، أو أن مؤلفاً وضع كتاباً يبرز فيه شخصية النبى العظيمة واضحة جليلة ، لقد كان الشرق فى ليل هادى بهم لم تثر فيه حركة فولتير يومئذ كناً ، ولكن اليوم قد تغير الأمر ، ولاحت فى أفق الشرق خيوط الفجر ، وقام فى هذا القرن كتاب يمجدون عقيدتهم وهم يعلمون أن فى ذلك تمجيذاً للحق وللشرق ، فان المسألة ليست مسألة دين فقط ، إنما هى أيضاً مسألة جنس وقومية ؛ وإذ تقول أوربا : « الإسلام ، فانما تعنى فى غالب الأحيان « الشرق » ، والدفاع عن الإسلام لم يكن فى كل الأحيان دفاعاً عن عقيدة وديانة ، إنما هو دفاع عن حياة تلك الكتلة التى يسميها الغربيون : « الشرق » . إن الحروب الصليبية فى حقيقتها لم تكن إلا حرب الغرب على الشرق ؛ وإن الفتح الإسلامى عندما بلغ فرنسا وهدد أوربا لم يكن فى الواقع

إلا حرب الشرق على الغرب . هذا المد والجزريين الغرب والشرق يفهمه مفكرو الأوربيين تمام الفهم ، ويحسبون له الحساب ، ويعملون دائماً على أن تكون الغلبة لهم آخر الأمر ، وأن يطيلوا على الأقل أمد غلبتهم إن كان لابد من تبدل الحال ومن دوران الفلك طبقاً لناموس أعلى لا قبل لهم به . فالدفاع عن شخصيتنا وعقيدتنا دفاع عن حياتنا ، وإن الكتابات التي توجه لهذا الغرض التبيل ينبغي أن يكون لها علينا حق المؤازرة والتعزيد ، وإني لست بناقذ منقطع للنظر في أعمال المؤلفين وتقدير قيم ما يكتبون ، ولكنني أريد أن أشير إشارة سريعة الى صوت من الشرق ارتفع في العصر الحديث محتجاً مدافعاً : هو صوت الأستاذ الإمام محمد عبده ، في رده على « هانوتو » . فلقد نشر جابريل هانوتو الكاتب والوزير الفرنسي يوماً مقالة جاء فيها :

« قد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية . اخترق المسلمون أبناء آسيا شمال القارة الأفريقية بسرعة لا تجاري ، حاملين في حقائبهم بعض بقايا تمدن البيزنطيين (يونان الشرق) ثم تراءوا بها على أوروبا ، ولكنهم وجدوا في نهاية انبعاثهم هذا مدنية يرجع أصلها إلى آسيا ، بل أقرب في الصلة إلى المدنية البيزنطية مما حملوه معهم ألا وهي المدنية الآرية المسيحية . ولذلك اضطروا إلى الوقوف عند الحد الذي اليه وصلوا ، وأكروهوا على الرجوع إلى إفريقية حيث ثبتت فيها أقدامهم أحقاباً متعاقبة » . ثم قال في موضع

آخر : « وقصر فريق منا بحثه وحكمه على مشاهدته من المناقضات والخلافات بين الدينين المسيحي والإسلامي ، فرأى في الإسلام العدو والألد والخضم الأشد . قال المسيو كيمون في كتابه « باتولوجيا الإسلام » : ان الديانة المحمدية جذام فشا بين الناس وأخذ يفتك فيهم فتكا ذريعاً ، بل هي مرض مروع وشلل عام ، وجنون ذهولي يبعث الإنسان على الخمول والكسل ، ولا يوقظه منهما إلا ليلسفك الدماء ، ويد من معاقره الخمر ويجمع في القبائح . وما قبر محمد في مكة إلا عمود كهر بائي يبتث الجنون في رؤوس المسلمين ويلجئهم إلى الإتيان بمظاهر الحسينيا (الصرع) العامة والذهول العقلي ، وتكرار لفظه الله إلى مالا نهاية ، وتعود عادات تنقلب إلى طباع أصلية ككراهية لحم الخنزير والنبيذ والموسيقى ، والجنون الروحاني ، والليمانيا ، والماليخوليا وترتيب ما يستنبط من أفكار القسوة والفجور في اللذات » الخ . أمثال هذا الكاتب يعتقدون أن المسلمين وحوش ضارية ، وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع ، كما يقول المسيو كيمون : « وأن الواجب إبادة خمسهم » . كما يقول أيضاً : « الحكم على الباقين بالأشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ، ووضع ضريح محمد في متحف اللوفر » . وهذا أيضاً قوله : « .. وهو حل بسيط وفيه مصلحة للجنس البشري .. أليس كذلك ؟ ولكن قد برح عن خاطر الكاتب أنه يوجد نحو ١٣٠ مليوناً مسلماً (١) ، وأن من الجائز أن

(١) عدد المسلمين الحقيقي في العالم يبلغ نحو ٤٠٠ مليون .

يهب هؤلاء « المجانين » للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم « الخ الخ .

« اكاد يظهر هذا الكلام في صحيفة المؤيد ، حتى قام الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لساعته مجرداً قلبه وكتب نحو أربع مقالات هي أقوى ما قرأت دفاعاً عن الإسلام ، وإظهاراً لحقيقة مبادئه الخافية على أغلب الأوروبيين . وقد رد على هانوتو فيما أوردنا ناصحاً :
 « ما هذا التمدن الآري الذي كانت عليه أوروبا عندما انتقص أطرافها المسلمون ؟ هل كانت تلك المدنية هي التسافك في الدماء ، وإشهار الحرب بين الدين والعلم ، وبين عبادة الله وبين الاعتراف بالعقل ، نعم هذا هو الذي كان معروفاً عند الغربيين وقت مآثر الإسلام !
 « ماذا حمل الإسلام إلى أوروبا ، وما هي المدنية التي زحف عليهم بها فردها ؟ زحف عليهم بما استفاد من صنائع الفرس وسكان آسيا من الآريين ، زحف عليهم بعلوم أهل فارس والمصريين والرومانيين واليونانيين . نظف جميع ذلك ونقاها من الأدران والأوساخ التي تراكت عليه بأيدي الرؤساء في الأمم الغربية لذلك التاريخ ، وذهب به أبلج ناصعاً بهر به أعين أولئك الغافلين المتسكعين الذين كانوا في ظلمات الجهالة لا يدرون أين يذهبون .
 « إني أكيل لمسيو هانوتو إجمالاً ، بإجمال ، والتفصيل لا يجمله قومه ، وكثير من منصفهم لم يستطع إلا الاعتراف به .
 « إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية

الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد
الأندلس على ما جاورها . وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها
مدة قرون فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . واليوم يرعى أهل أوربا
مانبت في أرضهم ، بعد ماسقيت بدماء أسلافهم المسفوفة بأيدي
أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطولع المدنية الحاضرة .
ثم رد الإمام في موضع آخر : « يجب على الباحث في الاسلام
أن يطلبه في كتابه : كما يجب عليه أن يطلب آثاره والاسلام لاسلام ،
والمسلمون مسلمون ، ولو استشم مسيو (كيمون) الذي استشهد
هانوتو بكلامه ربح العلم لما استفرغ ذلك القدر من فيه ، فسخافة
رأيه وقلة أدبه تكفيه .

« من أين أتى المسلمون وكيف دخل عليهم في عقائدهم بالتشبيه ،
وفي عوائدهم بالتبويه ؟ ومن تعلموا الاقتراس ، وعن أخذوا الضراء
بالشهوات ؟ أنا أعلم ذلك وأهل العلم يعلمون . والله من ورائهم محيط .
« اتبع المسلمون سنن من قبلهم شبرا بشبر ، وذراعا بذراع ،
حتى سقطوا في مساقطهم ، وطارحوا الأوهام حتى انجروا إلى
مطارحهم . وباءوا بما كان لهم وما عليهم . . .

« حدثت في الدين بدع أكلت الفضائل وحصدت العقائد ، وترامت
بالناس إلى حيث يصب عليهم ما استفرغه (كيمون) .

« أمالو رجع المسلمون إلى كتابهم واسترجعوا باتباعه ما فقدوه .
من آدابهم لسلمت نفوسهم من العيب ، وطلبوا من أسباب السعادة .

ما هداهم الله إليه في تنزيله على لسان نبيه ، ومهده لهم سلفهم وخطه لهم أهل الصلاح منهم ، واستجمعت لهم القوة ، ودبت فيهم روح الفتوة ، وكان ما يلقاه هانوتو وكيمون من دين صحيح شرأ عليهما مما يخشونه من دين شوهته البدع .

« يرى كيمون أن يخلى وجه الأرض من الإسلام والمسلمين ، ويستحسن رأيه هانوتو لولا ما يقف في طريق ذلك من كثرة عدد المسلمين ، وبئسما اختار لسياسة بلدهما أن يظهر اضغثهما ، ويعلنا خطل رأيهما وضعف حلمهما .

« أما فليعلم كل من يخدع نفسه بمثل حلمهما أن الإسلام إن طالت به غيبة ، فله أوبة ، وإن صدعته النوائب فله نوبة ، وقد يقول فيه المنصفون من الانكليز مثل (إسحق طيلر) وهو قس شهير ورئيس في كنيسة : « إنه يمتد في إفريقية ومعه تسير الفضائل حيث سار ، فالكرم والعفاف والنجدة من آثاره والشجاعة والاقدام من أنصاره »

نعم لقد آن للغرب أن يحترم عقائد الشرق . بل قد آن للغرب أن يدرك أن محمداً والإسلام هما من منابع الفكر الحر وطفرة من طفرات البشرية المتحررة . والدليل على ذلك شخصية النبي ذاتها وغرضه في الدعوة إلى دين جوهره إقناع النفس بالحقيقة العليا . فمحمد هو أول نبي مجد البشرية بأن أعلن أنه بشر ، وأن دينه هو دين الفطرة البشرية ، وقاوم أولئك السفهاء الذين كانوا يطلبون

إلى الأنبياء أن يثبتوا نبوتهم بالمعجزات فأئموأ في الفكر البشري قبل أن يأئموأ في حق الدين .

فالمعجزة أى الاتيان بعمل خارق للمعتاد لا تدل على شيء ولا تثبت نبوة ولا تدحضها . فإن من الكهان أو بسطاء الناس من يملكون أحياناً تلك القوى الخارقة في أجسامهم أو عقولهم أو أرواحهم دون أن يكونوا من أجل ذلك أنبياء . إن النبي ليس في حاجة إلى معجزة كي يكون نبياً . إنما النبي من حُمل رسالة علوية لا ينصرف عن الحياة حتى يؤديها ، ومن فضل محمد أنه لم يشأ أن أن يقنع الناس بغير ذلك ، فقد بلغهم رسالته واعتمد في إثباتها الملكات البشرية المجردة المتحررة .

فلقد جاء في كتب السيرة أن المسلمين عطشوا أثناء مسيرهم إلى غزوة تبوك فأمطرتهم السماء فقال بعضهم : (إنها معجزة) ، فصاح محمد من فوره : « إنما هي سخابة مارة » . وأن الشمس كسفت يوم مات ابنه إبراهيم فقال الناس : (إن هذا الكسوف معجزة) فصاح محمد : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفن لموت أحد ولا لحياته » . هذا كلام محمد الذي قال الغرب إنه نبي كاذب !! فهل يمكن أن يكون هذا جواب نبي كاذب ؟ ؟

إن محمداً قد فهم حقيقة النبوة ، ووعى معنى الحقيقة العليا وأدرك أن أكبر معجزة في هذا الكون هي أن لا يوجد في الكون معجزات ، وأن كل شيء يسير طبقاً لنظام دقيق . وإذا قيل نظام قيل قانون ،

وإذا قيل قانون قيل عقل مدبر، وهذا العقل واحداً حدتبدو سمته في إدارة الأجسام غير المحدودة في العظم كما تبدو في إدارة الأجسام غير المحدودة في الصغر، ذات اليد العلوية وعين أثرها في كل شيء، يد واحدة لا تتغير وقانون واحد لا يتغير. إن محمداً قد تأمل الطبيعة كثيراً أيام عزلته الطويلة في غار حراء، وفكر ملياً في نظامها العجيب فكشف عن بصيرته وبصره، فامتأ قلبه بالله الواحد، كما اقتنع عقله بوجوده، فجاء دينه ديناً كاملاً، صادقاً في نظر القلب والعقل معاً. ولئن كان على الأرض نبي حرص على أن يجاهر بمحبة العلم ومصادقته ولم يخش دينه العلم، ولم يضطهد العلماء، فهو «محمد» الذي قال: «فضل العلم خير من فضل العبادة» «اطلب العلم ولو في الصين» وكثيراً من الأحاديث التي تثني على العلم وتحض عليه. ذلك أن مصدر إقناع العلم ومصدر إقناع محمد واحد: الكون وملاحظة ما فيه من إبداع ينم عن عقل مبدع هائل. في كتاب حديث للعالم أنشتين فصل ذكر فيه رأيه في الدين، فقال إنه يعتقد ما يسميه الديانة الكونية «تلك الديانة التي تملأ قلب كل عالم انقطع لتأمل» ذلك التناسق العجيب بين قوانين الطبيعة وما يخفي من عقل جبار لو اجتمعت كل أفكار البشر إلى جانبه لما كونت غير شعاع ضئيل أقرب القول فيه أنه لا شيء».

لا ريب عندي أن إحساس أنشتين نحو الكون والله هو عين إحساس محمد يوم كان يتحنث في غار حراء قبل نزول الوحي.

إنما الأنبياء والعلماء قلوب واعية تشعر بجلال الله . ولا يمكن لنبي أن يكون نبياً إلا أن يشعر من تلقاء نفسه بعظمة الخالقة ويتحرق شوقاً إلى معرفة سرها ، ولا يزال الشوق بقلبه حتى يكشف له الصانع الأعظم عن بعض نوره ، ويوحى إليه بنشر هذا النور على الإنسانية . إنى كلما تأملت شخصية محمد مجردة ثبت إيماني بأن الخصومة المعروفة بين العلم والدين ليس لها في الحقيقة وجود ، وإن الدين الحق لا يتعارض والعلم الحق . . . بل إن الدين والعلم شيء واحد ، كلاهما يطلب نور الله ويريد وجهه ، وكلاهما يعي ويؤمن ويلهج بتناسق الوجود ووحدة قوانينه ودلالة وحدة الوجود على وحدة الخالق : ولم يظهر نبي حق ولا عالم حق شعر بغير ذلك . إنما الفارق بين العلم والدين هو في السبل التي يسلكها كل في الدنو من الله . ومن قال إن وسائل العلم ينبغي أن تماثل وسائل الفن أو وسائل الدين ؟؟

إن الطرائق والسبل يجب أن تظل مختلفة مميزة لا يختلط بعضها ببعض إنما المصدر واحد دائماً والغاية واحدة . فما الدين والعلم والفن إلا خيوط ثلاثة كتب على بشرتنا القاصرة العمياء أن تتمسك بها لتهتدي إلى ذلك النور الذي لا بداية له ولا نهاية : الله . . .

نجم أحمد !

وقف اليهودى على أحد أطام يثرب ناظراً إلى السماء يعلن
إلى بنى قومه ميلاد النبي فى صيحة مدوية : « طلع الليلة نجم أحمد ! »
عجباً من العجب ! أحقاً لم ير ذلك اليهودى نجم أحمد قبل تلك
الليلة ؟ يخيل إلى أن الناس فى ذلك الزمان كانوا يسرون مطرقين
كالعميان . إن نجم أحمد طالع فى كل لحظة يشع نوراً من بدايه
الكون لو أن للكون بداية ، إلى نهاية الزمن لو أن للزمن نهاية !
نجم أحمد هو الحق . والحق لا يبدأ ولا ينتهى . ولا يظهر ولا يختفى .
إنه موجود .

إذن ما الإسلام ؟ وكيف ظهر الإسلام بظهور محمد والمسيحية
بظهور المسيح واليهودية بظهور موسى ؟ هنا لزم للتفريق بين الحق
وثوب الحق . بين المعنى والأسلوب . ما الإسلام إلا أسلوب من
أساليب الحق ، ورداء من أرديته . كذلك المسيحية وكذلك
اليهودية . وكذلك كل دين من تلك الأديان السماوية التى تتحدث فى
الجوهر وتختلف فى المظهر . وهنأستطيع أن نفاضل بين الأساليب ،
وهنا فقط يجوز لنا أن نفاخر بالدين الأخير ، إذ جاء بأسلوب جامع
مانع ، سهل ممتنع ، محكم الوضع ، مصقول التراكيب . فالمفاضلة لا
تكون فى الجوهر ، لأنه واحد أحد ، إنما المفاضلة فى الأثواب .
وهنا يخطر على البال سؤال : هل تجوز المفاضلة بين الأثواب

وهي كلها من صنع الخالق المعصوم الذي لا ينبغي أن يخطئ ولا أن يصحح ما سبق أن صدر عنه . أو أن جوهر الحق وحده من شأن الله ، أما الأسلوب الذي يعرض به على الناس فهو من شأن الرسل والأنبياء ؟ قبل الإجابة عن هذا السؤال يجب النظر في قضية أخرى : هل للطبع والمزاج والخلق الذي ركب عليه النبي أو الرسول أثر في أسلوب رسالته ؟ هل شخصية الرسول تطبع بخاتمها شكل الدين الذي يدعو إليه ؟ وهل لظروف العيش التي نشأ عليها النبي دخل في اتخاذ « القالب » الذي أفرغ فيه « موضوع » النبوة ؟ إن أحب على كل هذا بالإيجاب فإن التبعة في « أسلوب » الأديان تقع بلامراء على كاهل الأنبياء . والنبي إذن مسئول عن الطريق الذي اتبعه للإبانة عن « الحق » مسئولية ملقاة على « شخصيته » التي صبغت الشريعة بصبغتها . وعلى قدر المسئولية تكون العظمة ، وعلى قدر « الشخصية » ذات الوجود الفعلي تقاس العبقرية العظمى والمجد الأسمى .

إن صح هذا الكلام فإني أستطيع القول أن النبي أو الرسول لا يصل إلى الحق متجرداً عن شخصيته . بل إنه لا يستطيع الدنو من الحق إلا عن طريق شخصيته . كذلك فعل النبي العربي ، وكذلك فعل المسيح وموسى . وكذلك كل نبي لا يستطيع أن يرى الحق إلا عن طريق إحساسه وطبعه وعقله . . وهي ملكات تختلف باختلاف الأشخاص . وهنا يبدو سر تباين الأساليب التي

جرت عليها الأديان في عرض جوهر الحق على الناس . ولعل محمداً هو أكثر الأنبياء حرصاً على تنبيه الناس في كل مناسبة إلى وجود شخصيته المستقلة ، فهو لا يفتر يذكرهم أنه بشر خاضع للقوانين التي يخضع لها البشر ، وأنه لا يتصل بالله هذا الاتصال الخاص الذي قصر على الرسل إلا إذ يشاء الله ، وأنه في كثير من حياته الخاصة أو العامة حيث لا وحي يهديه السبيل يتصرف كما يتصرف البشر . هكذا فعل في معارك بدر وأحدوا الخندق إذ كان يستمع إلى مشورة أصحاب الرأي من رجاله . وهكذا فعل إذ لم يخف ميله إلى الطيب والنساء . بل إنه أعلن ذلك الميل لعله أن الميول من مميزات الطبع التي ركبها الخالق في البشر . والنبي الحق أجل من أن يكتم مزاجاً أو طبعاً ، وهو يعرف أن المزاج والطبع من مقومات الشخصية .

وهنا تبدو حكمة الإسلام ظاهرة بين سائر الأديان ، فهو دين بسيط فطري لم تدخله صناعة ، كل شيء فيه صادق خالص صاف . ليس فيه إنكار لقوانين الطبيعة ، بل فيه مساهمة وحكمة ومصاحبة رشيدة لكل ما فرضه النظام العلوي على البشر من حيث تركيبهم المادي والمعنوي . ذلك أن أسلوب محمد في إدراك « الحق » كان أسلوباً مستقيماً . فهو قد أدرك أن « معنى » الحق إنما هو « السبب » الذي يصدر عنه الناموس الأكبر ، وأن روح الوجود هو « النظام » إذ لا يتصور أن تكون « الفوضى » من عناصر الخلق .

بل إن «الفوضى» إذا حلت في نظام الوجود انقلبت نظاماً ، لأنه لا وجود بلا نظام ، بل إن كلمة «الفوضى» لا محل لها إلا في أدمغة البشر يعبرون بها عن كل ما يحدث شيئاً من الخلل في ترتيب حياتهم الضيقة المحدودة . أما الكون غير المتناهي فلا يعرف غير النظام ، الذي فرض على الانسان والحيوان والجماد . هل من سبيل إلى مخالفته ؟ إن مخالفة النظام الطبيعي للإنسان والأشياء مخالفة لله ، وكل دين يقف في وجه النظم الطبيعية لا يمكن أن يكون من عند الله ، لأن الله لا يناقض نفسه . كل هذا فهمه محمد ووعاه ببصيرته النورانية النافذة ، فجاء أسلوب الاسلام في الافصاح عن «الحق» واضحاً جلياً ، لا يأمر بالرهينة ، ولا بالفرار من الدنيا ، ولا بتعذيب الجسد من أجل الله ، لأن الله لا يأمر بتحطيم ما بناه .

إنما يريد الله أن تعيش الأحياء طبقاً لقوانين الحياة التي وضعها لها ، وأن تجاهد في سبيل هذه الحياة ، وأن تتغلب على عناصر الفناء بما هيأه لها من مناعة طبيعية ، أو مناعة اكتسابية . والدين هو أداة المناعة الاكتسابية لمكافحة عناصر الفناء المادية والأدبية . فلئن كانت غاية الدين عند البشر توفير أسباب الحياة الصحيحة ، والدنيا الصحيحة خير تمهيد لآخرة صحيحة ، فإن الاسلام بلا مرأه هو دين الصحة في كل شيء . فهو ذو صوت جهير في الدعوة إلى صحة الجسم وصحة العقل وصحة العقيدة . ولئن كان ماضى هذا الدين السليم مجيداً ، فإن مستقبله ولا ريب يشير

بازدهار يعم الأرض لو استطعنا أن نجرده من سفسطة الجامدين،
وننقيه من ثرثرة المتنطعين، وننقذه من احتكار الجهال المحترفين؛
وأن نرده إلى مبادئه البسيطة الصافية التي لا تصدم تقدماً
ولا تعارض التطور الطبيعي للأذهان والأشياء. وقتئذ فقط
نستطيع أن نغزو به كل النفوس وكل العقول، فإن الدين «المثالي»
هو الدين البسيط. وهل أبسط من الإسلام شريعة وهي لا تعرف
«رجال دين» ولا تقر وجود أناس يجعلون من هداية الناس حرفة
يأكلون منها ويكثرون، ومن «الدين» مهنة تدر الرزق وتعطي
متاع «الدنيا»؟ إن أولئك الذين يجعلون «الدين» سلباً «للدنيا»
لا «الدنيا» سلباً «للدن» قد طردهم الإسلام بعيداً عن حظيرته،
وجعل الدين سمحاً باسمه باسطاً ذراعيه لكل الناس لا احترام فيه
ولا احتكار. نعم، إن حاجة البشر كافة قد أصبحت متجهة إلى
هذا النير العلوي الصافي من المبادئ البسيطة المستقيمة، التي لا
خداع فيها ولا تمويه ولا تناقض ولا تشويه ولا إخلال ولا تدخل
في قوانين الطبيعة الأساسية التي وضعها المبدع الأعظم. إذا تم
ذلك للإسلام في هذا العصر فلسوف يأتي يوم يقف فيه أهل
الأرض أجمعون من كل جنس ولون على آطام بلادهم يصيحون
في كل حول صيحة ذلك اليهودي:
«لقد طلع نجم أحمد!».

سر العظمة

ينبغي لمن أراد أن يعلم سر عظمة « محمد » أن يتخيل رجلاً وحيداً فقيراً تمكنت من قلبه عقيدة فنظر حوله فإذا الناس كلهم في جانب ، وإذ هو بمفرده في جانب . هو وحده الذي يدين بدين جديد بينما الدنيا كلها : أهله وعشيرته ، وبلده وأمته ، والفرس والروم والهند والصين وكل شعوب الأرض لا يرون ما يرى ، ولا يشعرون له بوجود . هذا موقف النبي ، وهذا موقف العالم : رجل عاطل من كل قوة وسلاح ، إلامضاء العزيمة وصلابة الإيمان أمام عالم تدعّمه قوة العدد والعدة ، وتوازره حرارة عقيدة قديمة شب عليها وورثها عن أسلافه ، واتخذت لها قرارة نفسه وأعماق تاريخه جذوراً ليس من السهل اقتلاعها على أول قادم . فالنبي هو ذلك القادم الذي يريد أن يقتلع تلك الجذور ويضع مكانها غرساً جديداً . والعالم القديم هو ذلك السادن القوي لتلك الشجرة العتيقة ، يذود عنها وتأبى كرامته أن يفرط في ورقة منها إذن « مبارزة » بين فرد أعزل وبين عصر بأسره يزجر غضباً : عصر زاخر بأسلحته ورجاله ، وعقائده وقيماته وعلماؤه ومشاهيره ، وتقاليده وماضيه ، ومجده وتاريخه ... هذه المبارزة الهائلة العجيبة من يستطيع أن يقدم عليها غير نبي ... على أن المعجزة بعد ذلك ليست في مجرد التحدي ورمي « القفاز » وارتفاع ذلك الصوت

الضعيف على شاطئ ذلك البحر الطامى العجاج : « أن اترك أيها العالم دينك القديم واتبعني » . ذلك الصوت الذي لا جواب عليه إلا سخرية طويلة وقهقهة عريضة . . . وليست المعجزة كذلك في مجرد شفاء الأصم وإبراء الأعمى ، إنما المعجزة حقيقة هي أن يخرج مثل هذا الرجل الوحيد الأعزل من هذه المعركة المخيفة ظافراً منتصراً ، فإذا هذا العالم العتيد كله يحشو عند قدميه منكس الأسلحة وقد انقلبت سخريته خشوعاً طويلاً ، وقهقهته صلاة عميقة . كيف ربح هذا الرجل الموقعة ؟ ما وسائله ؟ هل كانت له خطط وأساليب وقوة من شخصه مكنته من النصر ؟ أو أن الله هو الذي نصره دون أن يكون لشخصية النبي دخل في الانتصار ؟ عقيدتي دائماً أن شخصية النبي لها أثر كبير .

وهنا معنى الاصطفاء ، فالله يختار من بين البشر عظيماً له كاهل يحتمل عبء الرسالة ، ويوحى إليه بالعقيدة ثم يتركه يجاهد في سبيلها . فالنبي ليس آلة تحركها يد الله في كل خطوة ، إنما هو رسول عهد إليه تبليغ دين والعمل على إذاعته بين الناس بالوسائل التي يراها الرسول كفيلة ببلوغ الغاية . فالله لا يريد نشر الأديان للبشر إلا بالوسائل البشرية . إنه لا يتدخل بقدرته العلوية فيفرض الدين فرضاً على الناس كما تفرض عليهم الزواجر والأمطار ، ولكنه يحب دائماً أن يخل بين « الدين » وبين « الناس » حتى يتغلغل الدين من تلقاء نفسه في نفوسهم بجمال نوره وحده ، ولكن أعين الناس

لا ترى كل الأحيان فهم يعيشون في أعماق ماضيهم كالأسماك العمياء
 في أغوار المحيطات . هنا تبدأ متاعب النبي ، وهنا تظهر المعجزة
 الحقيقية وهي إبراء الأعمى لا أعمى واحد ولكن ملايين العميان .
 فهو الذي يفتح أبصارهم على نور طالما جحدوا وجوده : نور الدين
 الجديد الذي أتى به . وهنا ينبغى التساؤل . كيف استطاع النبي أن
 يرى الناس ما يرى ، وأن يقنعهم بما جاء به ؟ الجواب بسيط : حياة
 النبي وخلقه . إن الناس لا تقنع بالكلام وحده . إنما يؤثر فيهم
 الفعل والمثل . إن الناس يوم أيقنوا أن محمداً لا يسعى إلى غنى
 ولا إلى ملك ، وأنه يريد أن يبقى فقيراً يشبع يوماً ويجوع أياماً ،
 وأن كل تلك المخاطر التي يتعرض لها في كل خطوة ، وأن كل ذلك
 الهوان الذي يناله من سفهاء القوم وأكابرهم ... وأن كل ذلك الجهاد
 ملأ به حياته بأكملها إنما هو سبيل « العقيدة » التي يقول لهم عنها ،
 منذ ذلك اليوم الذي اجتمع فيه كبراء أمته وعرضوا عليه ثروتهم
 ووعدوه أن ينصبوه عليهم ملكاً على شرط أن يتركهم على دين
 آبائهم ، فرفض المال والمجد والسلطان ، وأبى إلا شيئاً واحداً صغيراً
 « أن يؤمنوا معه بفكرته » ، عند ذاك أدرك أولئك القوم جميعاً
 أن الأمر جد لا هزل ، وأنهم أمام رجل لا كسل الرجال ، وأن
 الآدمي الذي لا يغريه في الحياة شيء ، ولا يعيش إلا من أجل « فكرة »
 لا تقوّم بمتاع من أمتعة هذه الدنيا الرخيصة ، و « جمال » يضحى
 في سبيله خير ما في الحياة . أمام هذا الرجل أخذ الناس يفكرون

ملياً وثبت لمن كان قد ارتاب في أمره أن مثله لا يمكن على الأقل أن يكون أفاقاً يعمل لمغنم، إنما هو رجل صادق مخلص، لا مطمع له من تلك المطاعم التي يسعى إليها الناس في هذه الدار. عند ذلك بدأ كثير من الناس يجلسون إليه ويصغون إلى كلامه.. فوسيلة النبي الأولى وخطوته التي نزل بها الميدان، هي إقناع هذا الخصم الصاحب من الخلق أنه مجرد عن الغايات الدنيوية. وهنا كانت قوته. فان أمضى سلاح في يد رجل يريد أن يقارع البشر، هو أن يواجه البشر بيد خالية من مطاعم البشر!

ولكن هذا لا يكفي. فالناس قد تقتنع بأمانة النبي وقد تستمع إلى ما يقول، ولكنها لا تستطيع أن تنبذ في يوم وليلة كل ماضيها لتؤمن بهذا الكلام الجديد. إن صدر الجماهير كصدر المحيط العميق ذي الماء السكيف، يدفع إلى سطح كل جسم غريب، ولا ينفذ إلى أعماقه إلا شيء ذو وزن، بعد زمن وجهد. وإن الناس لشديدة الحرص على ما تسميه كنوز تراثها وتقاليدها. فما أدرهم أن هذا الكلام الجميل الذي جاء به هذا النبي ذو الحديث الطلي ليس إلا بضاعة زائفة ووهما خلافاً لعب بلب هذا الرجل الأمين المسكين فريسة مرض ومس؟ ما هو الأجدر بهم عندئذ؟ يطلبون له الطب حتى يبرأ «أو يلقون بكنوزهم ويتبعون حلمه ومسه. لقد وضعت المسألة إذن وضعاً آخر، واتخذت الحرب ميداناً جديداً. ماذا يصنع النبي؟ لا بد له من أن يبذل ضباب الشك الخيم على الأذهان حتى

يصل إليها نور الدين . هنا صفتان لازمتان : الصبر والمثابرة ، فان العاقبة في الحرب لمن صبر وثابر . وإن أمامه لخصما جديداً ، هو الشك الذي يقوم الآن في رؤوس الناس . فان كان حقيقة رجلاً عظيماً فليقتل هذا الشك بمفرده . وما هو بشك رجل واحد ، إنما هو شك أمة طامية . ولقد جاهد الرسول فعلاً في كل لحظة من لحظات حياته ، إلى أن استطاع ذات يوم أن ينقل العقيدة التي في قلبه حارة قوية إلى قلوب الناس جميعاً . وهنا كان النصر الأخير تمت المعجزة . وتمكن هذا الرجل الواحد من أن يضع العالم في قبضته ، ويخضعه لفكرته ، ويطبعه إلى أبد الآبدين بخاتمته ، ويدخل إلى صدره أشعة نور جديد .

المرأة في شباب النبي

لم يرو لنا التاريخ أن النبي العربي عرف امرأة أو تحرك قلبه لامرأة قبل خديجة . فلقد كانت حياته حتى الخامسة والعشرين حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء ، العاكف على عمله ، يرعى الغنم في الفلاة ويذجأ إلى التأمل العميق . فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره . كل ماورد مع ذلك من أخبار هو الشباب ، أنه قال ذات ليلة لفتى من قریش كان معه بأعلى مكة يرعيان غنم أهلها : « أبصر لي غنمي هذه الليلة حتى أسمر بمكة كما يسمر الفتيان » ثم خرج . فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير . فجلس يلهو بذلك الصوت حتى غلبه النعاس فنام مكانه ولم يوقظه إلا مس الشمس ، ورجع . فسأله صاحبه : « ما فعلت » فأخبره بما كان . وكان هذا شأنه في كل ليلة من مثل هذه الليالي .

كانت العفة المطلقة إذن هي صفته الغالية وقتئذ وكان الزهد والحلم والصبر والتواضع ما ميزه عن بقية الشبان وما جعل قومه يسمونه « الأمين » . ما الذي كان يشغل رأس الشاب محمد في تلك السن مادام اللهو والمرأة لا محل لهما عنده ؟ أترأه كان يحس في قرارة نفسه بمصيره العظيم ؟ نعم إن هذا الفتى قد شب في عصر شاعت في جوه كهرباء غريبة مشحونة بالأساطير والتنبؤات عن قرب

ظهور نبي من العرب اسمه (محمد) وكان مصدر هذا النبا اليهود
 أهل الكتاب والكهان ، حتى لقد سارع من بلغه ذلك من العرب
 فسمى ولده محمداً طمعاً في النبوة فهذا الجو الذي نشأ فيه الصبي
 محمد والاسم الذي حمله والإشاعات التي أحاطت به عن ذلك النبي
 الموعود ، كل هذا كان كافياً من غير شك في أن يبعثه على التفكير
 في هذا الأمر منذ الصغر ، ولعله طمع هو أيضاً في أن يكون هو
 النبي الجديد . ولعل هذه الفكرة تملكته كيانه وطمغت على كل
 شبابه فلم تتسع حياته في ذلك الوقت لشيء آخر .

لقد كان هذا غالباً شأن أغلب أولئك الذين انتظرهم أقدار
 عظام وتمسكتهم منذ شبابهم مثل عليا وأحلام ، عمرت كل أعوام
 شبابهم وحملت فيها محل اللهو والمرح . إن كل شاب يعيش مع شبح
 امرأة جميلة إلا الشاب الموعود برسالة عظمى فهو يعيش دائماً مع
 شبح المجد المنتظر . لعل هذا يفسر لنا بعض الشيء حياة الفتى محمد
 حتى الوقت الذي لقي فيه أول امرأة أحبها : « خديجة » . وإنا
 لو تأملنا الأمر ملياً لتبين لنا أنه لم يكن البادية بالحب . كل شيء
 يدل على أن الزواج لم يخطر له على بال ، والزوجة والمرأة آخر ما
 كان يفكر فيه وقتئذ ، فلقد كان يسير في طريق تأملاته الداخلية
 وأحلامه العليا وكأنه لا يمشي على هذه الأرض ، إلى أن لحظته
 خديجة ذات يوم ولمست كتفه فأفاق قليلاً ورفع عينيه إليها . نعم .
 إنها هي التي كانت ترقبه منذ زمن . وإن لشعورها نحوه جذوراً

ممتدة في أغوار قلبها امتداد عرق الذهب في المنجم العميق . ما مبدأ
 هذا الشعور ؟ لعله ذلك اليوم الذي احتفلت فيه نساء قریش بعيد
 لهن ، وكانت خديجة يبنهن عند وثن من الأوثان فبرز لهن أحد
 اليهود مناديا بأعلى صوته : « يانساء تيماء . إنه سيكون في بلدكن نبي
 يقال له محمد ، فأما امرأة استطاعت أن تكون له زوجا فلتفعل . » فقدفته
 النساء بالحجارة وقبحنه وأغلظن له ، إلا خديجة فإنها أطرقت وكان
 شيئا وقع في نفسها من كلامه . ثم حدث بعد ذلك أن خديجة ،
 وقد كانت ذات مال كثير وتجارة تبعث بها إلى الشام وتستأجر
 من أجلها الرجال ، أرسلت الشاب « محمدا » في تجارتها وضاعفت
 له الأجر . فعاد راجعا ضعفا ما كانت تربح التجارة على يد غيره ،
 لأماته واجتهاده . وقص عليها عندئذ غلامها « ميسرة » وقد رافق
 محمدا في رحلته مارآه من هذا الشاب المستقيم الأمين .

ولعله أخبرها فيما أخبر أن أحد الرهبان قابله ، وأنهما تذاكرا
 مليا في أمر النبي الموعود المسمى « محمدا » . كل هذا مع ما تشبعت
 به الأذهان من أساطير النبوة المنتظرة قد ألقى في روع خديجة
 أنها أمام شاب لا يبعد أن يكون هو النبي الموعود . فإذا أضفنا
 إلى كل هذا أن محمدا كان فتى في الخامسة والعشرين كريم الخلق
 جميل المنظر ، وأن خديجة كانت امرأة في الأربعين ، أدركنا
 أن مثلها كان لا بد له أن يحب مثله . وهل يمكن أن نسمى هذا
 الشعور باسم آخر غير « الحب » ؟ ذلك الذي يدفع امرأة ذات

شرف وثروة أن تبدأ هي الخطوة الأولى نحو فتى فقير يتيم؟ هي التي قد تقدم إليها أكرم رجال قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالا، طلبوها وبذلوا الأموال فلم تلتفت إليهم، وأرسلت تابعيها «نفيسة» دسيساً إلى الشاب «محمد» تعرض عليه يدها .

منبع الحب إذن كان قلب «خديجة» . ولقد كان هذا الحب سامياً قوياً عظيماً فاستطاع أن يفتح قلب «محمد» وأن يملأه كل تلك الاعوام التي عاشتها خديجة بل إن هذا الحب لم ينطفئ بموت خديجة، ولقد ظل مكانها من قلبه قائماً دائماً لم تستطع قط امرأة أن تزاحمها فيه . هذا هو حب «محمد» الأول . وتلك ناحية من نواحي الفضل المجهولة لم يذكرها الناس كثيراً لخديجة بما هي أهله من التكريم والتعظيم : إنها أول امرأة علمت «محمداً» الحب .

جوهر الدين

كان عمر بن الخطاب شديدا في مراعاة أحكام الله .. حريصا على إقرار الأمن والأمانة بين الناس . فبينما هو يسير يوما في إحدى الأسواق ، إذا هو يرى رجلا يلتقط من الأرض لوزة ، ويرفعها في يده ، ويجرى بها في الطريق صائحا :
— من ضاعت له لوزة ؟ !

فما كان من عمر إلا أن انتهره قائلا :
— كلها يا صاحب الورع الكاذب ! ..

في الناس أيضا من يلتقط لفضة في كلام كاتب .. فيرفعها منعزلة عن نواياه ، مستقلة عن مراميه . ليندب ويولول صائحا :
« ضاع الدين .. ضاع الدين ! » .. مثل هذا المتظاهر بالورع لا يفهم من الدين إلا ألفاظا .. ولا يدرك بأفقه المحدود ان الدين لا يخشى عليه من لفضة ، كما أن الأمانة لا يخشى عليها من لوزة ! .. وأن الكتاب والشعراء في كل العصور ينتفعون بكل ما في الكتب القديمة من صور دون أن يرتاب في عقائدهم القارئ الحصيف ! ومن ذا الذي يستطيع أن يرمى بالوثنية شاعرا يناجى آلهة الشعر أو يرى في هتافه باله الحرب أو اله البحر شركا بالله الواحد الاحد الذي لا شريك له ؟ .. وإنما هي صور من الآداب القديمة

يستعيرها الشعراء والكتاب في أساليبهم ، دون أن يخطر في بالهم
أن من الناس من يضيق عقله فيخلط بين الصورة الشعرية والعقيدة
الدينية ! ..

ولكنى مع ذلك أحيى كل من بينهم جوهر الدين .. واث
الناس على أن يفخروا بالدين .. فإني دائماً أومن أن الدين هو
الذى رفع الإنسان فوق مرتبة الكائنات جميعاً .. فالذكاء ليس
بالمزية التى أختص بها الإنسان وحده . والنظام الإدارى المحكم
أو الاقتصادى الكامل ليس وقفاً على المجتمع البشرى .. فإن مجتمع
النحل لأدق منا نظاماً فى الإدارة .. وإن مجتمع النمل لأتم منا
أحكاماً فى الاقتصاد .. ولكن الذى يميزنا نحن الإنسان هو
« الإيمان » .. ما من مجتمع غير مجتمعنا البشرى اهتدى إلى ذلك
الإيمان الدينى .. لأن حياة الروح لم يلج بعد بابها غير الإنسان ..
إذا أهدرت دينك أيها الإنسان فاعلم أنك قد أهدرت آدميتك ..
وإذا خلعت رداءك الدينى ، فقد خلعت رداءك البشرى ، وانقلبت
دابة تسعى إلى رزقها فى الأرض .. ولا تقوى على التطلع إلى
السماء .. الدين هو الذى يرفع بصرك إلى أعلى أيها الإنسان ...
إلى أعلى من أقدامك وأرضك وطعامك وشرابك ... وإذا
استطعت أن ترفع بصرك إلى أعلى من فمك فأنت أرقى من
الحيوان ... وإذا أرتفعت إلى حيث تدرك وجود « الله » فأنت

سيد الكائنات ...

كل شيء قد يعرفه الحيوان إلا «الدين»... لو عرفت جماعة
من الحيوان يوما معنى الدين لأصبحت في الحال بشرا
ساجدين!... ما من شيء نفخر به نحن الأدميين إلا أننا نسجد
من أجل فكرة عليا... ونتحمس من أجل معنى مقدس...
وتعرف قلوبنا ما هو «الإيمان»!...

1870

Received of the
Hon. Secy of the
Interior
for the
Department of
the Interior
the sum of
\$100.00
for the
year 1870

في الأدب والفن والثقافة

الخلق

... لا ريب أن العقلية المصرية قد تغيرت اليوم بعض التغيير كيف تغيرت؟ هذا هو موضوع الكلام. إن شئون الفكر في مصر حتى قبيل ظهور الجيل الموجود كانت مقصورة على المحاكاة والتقليد محاكاة التفكير العربي وتقليده. كنا في شبه إغماء، لا شعور لنا بالذات. لا نرى أنفسنا ولكن نرى العرب الغابرين. لا نحس بوجودنا، ولكن نحس بوجودهم هم. لم تكن كلمة «أنا» معروفة للعقل المصري. لم تكن فكرة الشخصية المصرية قد ولدت بعد. حتى جاء الجيل الجديد فإذا هو أمام روح جديد، وأمام عمل جديد. لم يعد الأدب مجرد تقليد أو مجرد استمرار للأدب العربي القديم في روحه وشكله، وإنما هو إبداع وخلق لم يعرفهما السلف، وبدأت الذاتية المصرية واضحة لا في روح الكتابة وحدها بل في الأسلوب واللغة أيضاً. لقد بدأنا نعي ونحس وجودنا، وأول مظاهر الوعي شخصية الأسلوب واستقلال طريقة التعبير وما يتبعها من ألفاظ وأخيلة. كل هذا أصبح اليوم جلياً معروفاً. ولم أكتب هذه الصفحات من أجله، فحاجة مصر إلى الاستقلال الفكري أمر لا نزاع اليوم فيه، ولقد مضى الكلام في هذا، إنما الأمر الذي يحتاج إلى كلام هو معرفة مميزات الفكر المصري: معرفة أنفسنا حتى تدبّر لجيلنا مهمته. لقد فهمنا مميزات الأسلوب والشكل، وما

فهمنا بعد جيداً مميزات النفس والروح . ماهي مميزات العقلية المصرية في الماضي والحاضر والمستقبل ؟ ماروح مصر ؟ مامصر ؟ إن اختلاطنا بالروح العربية هذا الاختلاط كاد ينسينا أن لنا روحاً خاصة تنبض نبضات ضعيفة تحت ثقل تلك الروح الأخرى الغالبة ، وإن أول واجب علينا هو استخراج أحد العنصرين من الآخر ، حتى إذا ما تم تمييز الروح حين احداهما من الأخرى كان لنا أن نأخذ أحسن ما عندهما ، وكان لنا أن نقول للناس : « هانحن أولاء قد أنرنا لكم الطريق الى أنفسكم فسيروا » .

لا بد لنا إذن أن نعرف ما المصري وما العربي ؟ هذا السؤال ألقيته على نفسي منذ سنوات معدودة إذ كنت أطيل النظر في الفنين المصري والإغريقي ؟ . وأذكر أنني أثرت هذه المسألة أمام بعض الباحثين ، وأذكر أنني لخصت الفرق بين العقليتين بمثل واحد في فن النحت سائلاً : ما بال تماثيل الآدميين عند المصريين مستورة الأجساد وعند الإغريق عارية الأجساد ؟ هذه الملاحظة الصغيرة تطوى تحتها الفرق كله ، نعم كل شيء في مصر مستتر خفي عند المصريين عار جلي عند الإغريق ، كل شيء في مصر خفي كالروح وكل شيء عند الإغريق جلي كالمنطق ، في مصر الروح والنفس ، وفي اليونان المادة والعقل . نظرة أخرى في أسلوب النحت تدعم هذا الكلام . إن المثال المصري لا يعنيه جمال الجسد ولا جمال الطبيعة من حيث هي شكل ظاهر ، إنما تعنيه الفكرة ، إنه يستنطق الحجر

كلما وأفكاراً وعقائد. على أنه يشعر مع ذلك بالتناسق الداخلي،
يشعر بالقوانين المستترة التي تسيطر على الأشكال، يشعر بالهندسة
غير المنظورة التي تربط كل شيء بكل شيء، يشعر بالكل في الجزء
وبالجزء في الكل، وتلك أولى علامات الوعي في الخلق والبناء.
هذا كله يحسه الفنان المصري لأن له بصيرة غريزية أو مدربة تنفذ
إلى ما وراء الأشكال الظاهرة لتحيط بقوانينها المستترة. فنان عجيب
لا يصرفه الجمال الظاهر للأشياء عن الجمال الباطن. إنه يريد أن
يصور روح الأشكال لا أجسامها، وما روح الشكل إلا القانون
العام الأعلى المستتر خلفه. إن ولع المصريين بالقوانين الخفية
لشيء يبلغ حد المرض، مرض إلهي، لو أن الآلهة تمرض لكان
هذا مرضها: فرط البحث عن القانون!

كل شيء في مصر إلهي، لأن مصر التي منحها الطبيعة الخير
واليسر وسهولة العيش وكفتها مشقة الجهاد في سبيل المادة استلقت
منذ الأزل تتأمل ما وراء المادة... حظها في هذا حظ الهند: أمة
كثير الخير كذلك دانية القطوف لا حاجة بها إلى الكفاح ولا عمل
لها إلا استمرار ترف الحكمة العليا. انقطعت هي أيضا من قديم
تحت أشجارها المقدسة تبحث عما وراء الحياة.

مصر والهند حضارتان قاما على الروح لأنهما قد شبعتا من
المادة، الإغريق على النقيض، أمة لم تشبع من المادة، أمة نشأت
في العسر والفاقة. أرضها لا تدر من الخير إلا قليلا. كان لزاما

عليها الكفاح في سبيل العيش وكان حتما عليها الجرى وراء المادة ،
 حرب تلو حرب ، وفتح بعد فتح ، وضرب في مشارق الأرض
 ومغاربها ، على هذا النحو لم يكن للاغريق ذلك الضمير المطمئن
 ولا ذلك الشعور بالاستقرار ، ولا ذلك الإيمان بالأرض التي
 يوحى بالتفكير فيما وراء الأرض والحياة. إن عاطفة الاستقرار
 والإيمان عند المصريين ممزوجة بالدم ، لأن المصريين نزلوا من
 بطن الأزل إلى أرض مصر ، لا يعرف لهم نسب آخر على وجه
 التحقيق واختلاف العلماء في أمر أصلهم لم ينته بعد ، وفي كل يوم
 يبدو دليل على أن العمران والاستقرار وجد في مصر قبل التاريخ
 المعروف ، ولقد ظهرت الحضارة المصرية في التاريخ تامة كاملة
 دفعة واحدة ، كما يظهر قرص الشمس في الأفق عند الشروق .
 ولقد قال سولون : إن الكهنة المصريين يعنون العناية كلها بذكريات
 تلك القارة العظيمة ذات المدنية الزاهرة التي ابتلعها المحيط قبل
 مبدأ التاريخ : « قارة الأتلانتيدي » أترى كانت الحضارة المصرية
 استمراراً لتلك المدنية المندثرة ؟ ... لم يبق دليل . على كل فرض مصر
 أمة مستقرة مؤمنة ، زهدا عمرها الطويل وخيرها الكثير في مبادئ
 الحياة ، وهذا الزهد والتفكير فيما وراء الحياة ظهر أثرهما على وجه الفن
 المصري ، ولا شيء يدل على عواطف أمة وعلى عقليتها مثل فنها .
 فلقد طالع العالم الحديث على وجه الفن المصري الصرامة والجد
 والعمق ، ولا أكاد أفتح كتابا في الفن المصري حتى أجد كلمة

« الصرامة » نعتا من نعوت هذا الفن ، ولا أفتخ كتابا في الفن الاغريقى إلا وجدت كلمة « الحياة » وكلمة « الانسانية » من نعوت هذا الفن . نعم ، الحياة هى كل شىء عند الاغريق ، قد يدفعهم حب البحث إلى لمس حدود الحياة الأخرى فيلمسونها بالعقل والمنطق لا بالقلب والروح . فلسفتهم فلسفة العقل والمنطق والحياة . فلسفة الحركة لا فلسفة الكون . عند مصر والهند السكون وعند الاغريق الحركة ، قرأت حديثا « المقبرة البحرية » لـ « پول فاليرى » وهو المتصل اتصالا مباشرا بالفلسفة اليونانية فاذا هو يشير فى قصيده إلى الحركة والسكون ، وإذا الحركة عنده من خصائص الكينونة الواعية الفانية والكون من خصائص العدم الخالد غير الواعى ، وهو يعارض زينون الأليأتى فى إنكاره للحركة ، ويتغنى فى آخر القصيدة بانتصار الحركة أى الحياة على قصرها وفنائها ، فهو فى ذلك لم يخرج عن يونانيته المكتسبة . ولم يفهم رأي روح مصر والهند ! ولم يشرف على ذلك العالم الخالد غير الواعى ، فإن دون هذا الاشراف والاتصال والتجرد التام من كل عقل آدمى أو منطق بشرى . هذه هى الصعوبة فى فهم مصر والهند ، وهذا ما جعل الفن المصرى سرًا مغلقًا حتى أوائل هذا القرن ، وما صرف الناس إلى دراسة اليونان وحدها ؛ فهى واضحة لمعنى يسيرة المنال ، لأنها لزمّت شاطئ الحياة .

حظ الإغريق فى كل هذا حظ العرب أيضا أمة نشأت فى

فقر لم تعرفه أمة غيرها ؛ صحراء قفر ، قليل من الماء يثير الحرب والدماء . جهاد وكفاح لا ينقطعان في سبيل العيش والحياة . أمة لاقت الحرمان وجهها لوجه ، وما عرفت طيب الثمار وجرى الأنهار ورغد العيش ومعنى اللذة إلا في السير والأخبار . كان حتما عليها ألا تحس المثل الأعلى في غير الحياة الهنيئة ، والجنات الخضراء ، والماء الجاري ، وألوان النعيم واللذائذ التي لا تنضب ولا تنتهي . أمة بأسرها حلمت بلذة الحياة ولذة الشبع ، فأعطاهم ربها اللذة ومنحها الشبع . كل تفكير العرب وكل فن العرب في لذة الحس والمادة ، لذة سريعة منهزمة مختطفة اختطافا ، لأن كل شيء عند العرب سرعة ونهب واختطاف . عند الإغريق الحركة ، أي الحياة ، وعند العرب السرعة ، أي اللذة . لم تفتح أمة العالم بأسرع مما فعلت العرب ، ومر العرب بحضارات مختلفة فاختلفوا من أطايبها اختطافاً ركضاً على ظهور الجياد ، كل شيء قد يحسونه إلا عاطفة الاستقرار . وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ! دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض ، وحيث لا أرض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ولا خيال واسع ولا تفكير عميق ولا إحساس بالبناء لهذا السبب لم تعرف العرب البناء ، سواء في العمارة أو في الأدب أو في النقد ، الأسلوب العربي في العمارة من أوهي أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن وإذا عاش لليوم فإنما

١٧

يعيش بالزخرف. فن الزخرف العربي هو الذي أنقذ العمارة العربية، إن العمارة العربية — إلا في مصر — ما هي في رأيي سوى زخرف لا بناء، فلا أعمدة هائلة ولا جبهة عريضة ولا وقفة ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة، إنما هي وشى كثير وجمال كجمال الحللى المرصع يبهى البصر ولا فكر خلفه. أما فن الزخرف العربي هو الذي أنقذ العمارة العربية، إن العمارة العربية — إلا في مصر — ما هي في رأيي سوى زخرف لا بناء، فلا أعمدة هائلة ولا جبهة عريضة ولا وقفة قوية ولا بساطة عظيمة ولا روعة عميقة، إنما هي وشى كثير وجمال كجمال الحللى المرصع يبهى البصر ولا فكر خلفه. أما فن الزخرف العربي فهو في الحق أجمل وأعجب فن للزخرف خلده التاريخ. والزخرف عند العرب وليد ذلك الحلم باللذة والترف، كل شيء عند العرب زخرف. الأدب نثر وشعر لا يقوم على البناء، فلا ملاحم ولا قصص ولا تمثيل، إنما هو وشى مرصع جميل يلذ الحس؛ «فسيفساء» اللفظ والمعنى، و«آرابسك» العبارات والجمال. كل مقامة للحريرى كأنها باب لجامع المؤيد، تقطيع هندسى بديع وتطعيم بالذهب والفضة لا يكاد الإنسان يقف عليه حتى يترنح مأخوذاً بالبهرج الخلاب. كذلك الغناء العربي «آرابسك» صوتى، فلا مجموعة أصوات متسقة البناء كما فى «الديتيرامب» أو «الأوركسترا» الإغريقية أو كما فى «الكورس» الجنائزى المصرى. ولا حتى مجرد صوت ينطلق حرّاً بسيطاً مستقيماً.

إنما هو صوت محمل بألوان المحسنات من تعاريج وانحناءات والتواءات
وتقاسيم كأنها (ستالاكتيات) غرناطية، لا يكاد يسمعه (القاضي
الفاضل) حتى يستخفه الطرب ويضع نعله فوق رأسه. كان هذا
في العهد الأول للموسيقى إذ كانت عند جميع الشعوب بسيطة عارية
تخرج من القلب تعبيراً عما في القلب، أو رمزاً لفكرة من
الأفكار. والموسيقى كالعمارة من الفنون الرمزية لا الفنون الشكلية
ولكن العرب لا يحبون الرموز، ولا طاقة لهم بالفن الرمزي،
ولا يريدون إلا التعبير المباشر بغير رموز، إلا الصلة المباشرة
بالحس، فجعلوا من الموسيقى لذة للأذن لا أكثر ولا أقل، كما جعلوا
العمارة لذة للعين لا أكثر ولا أقل. ولقد حاول الفارابي فيما أذكر
التقريب بين الموسيقى العربية والموسيقى الإغريقية، وكان لا بد له من
الاخفاق لأسباب قد أذكرها بعد. كذلك التصوير العربي على جماله
ودقته ليس إلا مجرد تزيين وزخرف للكتب والمخطوطات ولم
يؤد لغير تلك الغاية «المنياتور» الفارسي. قد يكون للدين دخل
في تأخر النحت والتصوير عند العرب، غير أنني أعتقد في براءة
الدين، فإن العرب كانوا دائماً ضد الدين كلما وقف الدين دون
رغبات طبائعهم، لقد حرم الدين الشراب، فأحلوا هم الشراب في
قصور الخلفاء، وما وصفت الخمر ولا مجالس الخمر في أدب أمة
بأحسن مما وصفت في الأدب العربي. لا شيء في الأرض ولا في
السماء يستطيع أن يحول بينهم وبين اللذة. أما النحت أو التصوير

الكبير فليس في طبيعتهم لأن تلك الفنون تتطلب فيمن يزار لها
 إحساساً عميقاً بالتناسق العام مبناه التأمل الطويل، والوعى الداخلي؛
 للكل في الجزء وللجزء في الكل، وليس هذا عند العرب . فهم
 لا يرون إلا الجزء المنفصل وهم يستمتعون بكل جزء على انفراد.
 لا حاجة لهم بالبناء الكامل المتسق في الأدب، لأنهم لا يحتاجون
 إلا للذة الجزء واللاحظة . قليل من الكتب العربية في الأدب يقوم
 على موضوع واحد متصل، إنما أكثر الكتب "كشاكيل" في شتى
 الموضوعات تأخذ من كل شيء بطرف سريع . من حكمة وأخلاق
 ودين ولهو وشعر ونثر ومأكل ومشرب وفوائد طبية ولذة جسدية ،
 وحتى إذ يترجمون عن غيرهم يسقطون كل أدب قائم على البناء ،
 فلم ينقلوا ملحمة واحدة ولا تراجيدياً واحدة ولا قصة واحدة .
 العقلية العربية لا تشعر بالوحدة الفنية في العمل الفني الكبير ،
 لأنها تتعجل اللذة ، يكفيها بيت شعر واحد أو حكمة واحدة أو لفظ
 واحد أو نغم أو زخرف لتمتليء طرباً وإعجاباً . لهذا كله قصر العرب
 وظيفة الفن على ما نرى من الطرف الديوى وإشباع لذات الحس
 حتى الحكمة ، وشعراء الحكمة كانوا يؤدون عين الوظيفة : إشباع
 لذة المنطق ، والمنطق جمال ديوى . ولا أستغرب غضب نيتشه
 على إيروبيد لاسرافه في هذا المنطق على حساب الموسيقى . من
 المستحيل إذن أن نرى في الحضارة العربية كلها أى ميل لشؤون
 الروح والفكر بالمعنى الذى تفهمه مصر والهند . من كلمتي الروح

والفكر ، إن العرب أمة عجيبة ، تحقق حلها في هذه الحياة ، فتشبت به تشبت المحروم ، وأبت إلا أن تروى ظمأها من الحياة ، وأن تعب من لذاتها عما قبل أن يزول الحلم وتعود شقاء الصحراء ، وقد كان . إن موضع الحضارة العربية من « سائفونية » البشرية كوضع الـ « سكيرتزو » من سائفونية يتهوفن . نعم سريع مفرح

لذيذا ! ! تأثر تصنيف الحكماء بنفذة هذا الفن بحسب تصنيفه

لا ريب عندي أن مصر والعرب طرفا نقيض : مصر هي الروح ، هي السكون ، هي الاستقرار ، هي البناء . والعرب هي المادة ، هي السرعة ، هي الظعن ، هي الزخرف ! ؟ ؟ ؟ ؟ مقابلة عجيبة : مصر والعرب وجهها الدرهم ، وعنصر الوجود ! أي أدب عظيم يخرج من هذا التلقيح ! إنى أومن بما أقول ، وأتمنى هضمة للأدب المصري الحديث هذا المصير : زواج الروح بالمادة ، والسكون بالحركة ، والاستقرار بالقلق ، والبناء بالزخرف ! تلك ينابيع فكر كامل ومدنية متزنة لم تعرف البشرية لها من نظير . إن أكثر المدنيات يميل إما إلى ناحية الروح ، وإما إلى ناحية المادة .

حضارة واحدة قيل إنها استطاعت في وقت ما هذا المزج بين الروح والمادة وهذا الإتران بين عنصرى الوجود ، تلك حضارة الإغريق . نعم أعود فأرد إلى أمة الإغريق اعتبارها ، وأعترف أنى عندما وضعتها في كفة المادة كنت متأثراً ببعض الشيء بكلام « تين » و « تين » عقل خلاب لكنه عقل . والعقل وحده بعيد طبقاً للمفهوم الذي يعلم وهو امتزاج الروح والمادة .

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO

عن فهم الجانب الروحي للمدنيات.. ما هداني إلى الحق إلا القلب..
إلا طول تأمل في جهة « البارتيذون » . من دماغ ذلك الجواد
الذي خلقتة يد « فيدياس » فوق هذا المعبد خرجت أفكار توحى
إلى بأن أولئك القوم كانوا أعمق مما نظن ، وكانوا يشعرون بشيء
آخر غير مجرد المادة الظاهرة ، وما لبثت « ميلبومين » أن جاءتني
ببينة أخرى ، وتأملت قليلا فرأيت القناع قد كشف و ذكرت
من فوري أن أصل الاغريق جنسان مختلفان : اليونانيون القادمون
من آسيا المعروفون عند الهنود باسم « اليافاناس » أى عباد « يونا »
والدوريون الحريون البرابرة الهابطون من الشمال ، وآله
اليونانيين هو (ديونيزوس) وآله الدوريين هو « أبولون » .
وها هنا تفسير الاغريق : في هذا الصراع بين ديونيزوس رمز
الروح والقوى الخفية الشائعة والنشوة ... وبين أبولون رمز
الفردية والشخصية المفروزة والوعى ، صراع بين الروح والمادة
وبين القلب والعقل ، وبين النشوة والوعى ، ديونيزوس إله أسىوى
فيما يخيل إلى ، جلب من الهند بلا مرأ فغدا في اليونان ينبوع
الموسيقى . لهذا السبب قدرت إخفاق الفارابي . فان الموسيقى
العربية وليدة عقل واع ، لأن العرب أمة الفردية والوعى والمنطق
العقلي والظاهر المحسوس ، إن العرب من عباد أبولون وهم لا يشعرون
إن العرب لا يمكن أن يفهموا ديونيزوس ، تلك النشوة الدينية
الجارفة التي تخرج صاحبها من سيطرة العقل والوعى كي تصله

مباشرة بالطبيعة . إن أغاني عباد « باكوس » الحماسية في الغابات ومزامير الـ « ساتير » لشيء بعيد إدراكه على العقلية الفردية ، شعور الانسان في لحظة أنه انقلب مخلوقاً له جسم جواد ورأس رجل أو رأس رجل وأرجل ماعز . هذا الاتحاد بين الحيوان والانسان إحساس ليس له مثيل إلا عند المصريين القدماء ، هذا التلاقى بين الأنواع وبين القوى في مخلوق واحد لهو عند الأولين بقية ذكرى تلك المخلوقات إلهية البائدة التي كانت تحكم الأرض قبل ظهور الانسان . . . مخلوقات لاهى من الاناث، ولاهى من الذكور، لاهى من الحيوان، ولاهى من الانسان. لأن الأجناس والفصائل لم تكن قد فرزت . كذلك « الساتير » في الميثولوجيا الاغريقية رمز للانسان الأول ذلك الانسان الدانى من الحيوان القريب من الآلهة، يدنو من الحيوان بغريزته الجنسية المتبقية ينبوع القوة الخالقة عن الاغريق والهنود كماهى عند المصريين ، ويقرب من الآلهة بغريزته الروحية المتصلة بقوى الطبيعة الالهية ، فهو ما زال يحتفظ بقبس من الحكمة العليا بدون أن يشعر ، وبيريق من ذلك النور الروحى والالهام الذاتى يرى به كتلة الزمن من ماض وحاضر ومستقبل فى شبه لحظة واحدة .

تلك القدرة الخفية هى حاسه بائدة كانت للانسان الأول ، وفقدناها اليوم ، نعم فقدنا كل القوى الروحية التى منحتنا إياها الطبيعة يوم كنا نحبا ونتصل بها ، ولم يبق لنا اليوم إلا العقل المحدود

والمنطق القاصر. وهانحن أولاء اليوم في هذا الكون الهائل مخلوقات منفردة منبوذة! أين ذهب ديونيزوس؟ وهل يبعث من جديد؟ وإذا بعث فهل يجد من يعرفه في هذا العصر ذى الحضارة المادية الفردية؟!

رجل واحد ما زال يذكر هذا الآله ويستطيع أن يعرفه إذا ظهر كما عرف غاليلاس (١) أصحاب الكهف!! وهو وحده كذلك يستطيع أن يستقبله باسم هذا العصر، هذا الغاليلاس العصري هو: «تاجور»! إنه يتكلم كثيراً عن ذلك الاتحاد بين الإنسان والطبيعة وعن ذلك الفاصل المرفوع بين الحياة الخاصة وبين الحياة العظمى التي تخترق الكون. وعن ذلك الحب بين الإنسان والجماد. هذا كلام جميل لكن هل تراه يشعر بحقيقته؟ يخيل إلى أن تلك الحقائق قد انطوت بانقضاء دولة الاغريق. بل لقد انقضت قبل أن تنقضى دولة الاغريق. انقضت بطغيان منطق سقراط على روح هوميروس انقضت بطرد ديونيزوس من تراجيديات إيروبيد (غضبة نيتشه المعروفة)، انقضت بغلبة الإحساس الفعلي على الإحساس الروحي، انقضت بانتصار «أبولون» في النهاية على «ديونيزوس». وهكذا اختل التوازن، ورجحت كفة المادة، وانطفأت الحضارة الإغريقية إلى الأبد. ولم ترث أوربا منها غير كنوز العقل والمنطق، وبقيت

(١) أحد أبطال قصتي أهل «الكهف»

في الظلام كنوز ديونيزوس الخفية .

لم تنجح اليونان إذن النجاح المطلوب في تطعيم الروح بالمادة
فهل تأمل مصر بلوغ هذه الغاية يوماً ؟ ما ؟

دمهور في مايو عام ١٩٣٣ من رسالة إلى طه حسين .

النقد

... نحن متفقان ، ولا خلاف بيننا في الغاية . وهو مطلبنا .
هنالك تفاصيل أفرق فيها عنك ولن أعود إليها فأنا أفرع من
النظر إلى الوراء ، خشية أن أتحوّل إلى تمثال من الملح ، أو حتى إلى
تمثال من الذهب . نفسى تصدف أحياناً عن الفكرة الجامدة مهما
تكن خالدة ، ويحلو لى أحياناً أن أنثر الأفكار عابثاً من نافذة
قطار . إن رسائلنا في حقيقتها لا تعنى أكثر من إثارة الغبار في
أرض نائمة مفروشة بالحصى . لسنا نصدر أحكاماً بهذه الكتب
السريعة . إنما نحن نطرح مسائل ونلقى بفروض سوف يلتقطها
ويجمعها الباحثون المنقطعون يوم تستيقظ الأجيال . اتفقنا إذن .
أو ينبغي لنا أن نتفق على أى حال حتى ننصرف إلى شئ جديد .
إن البحث عن الجديد هو الخلق عندى بالمجهد . ولقد فتح لنا
اليوم باب الجديد صديقنا « أحمد أمين » . قال لى ذات مساء إنه
يود لو يضع كتاباً في أصول النقد . النقد ؟ لفظ رن فى أذنى .
وذكرت للفور أن رسالتى السابقة إليك كان موضوعها « الخلق » .
وقلت فى نفسى ما يمنع من إتمام الكلام فى رسالة ثانية يكون
موضوعها « النقد » وإذا الأمر ينكشف لى عن قضية كبيرة : أنعد
النقد كالخلق خاضعاً لسلطان التيارات الفكرية الثلاثة التى ذكرتها
فى ردك : التيار المصرى القديم ، والتيار العربى ، والتيار الأوروبى ؟

أم نعد النقد كالعلم لا يخضع لمثل هذه المؤثرات؟ أما أنا فلن أجيب من فوري عن هذا السؤال . فأنا أكتب ولا أدري أين يخط بي القلم . دعني أولاً أنشئ . على هذا النغم بعض « تقاسيم » دون أن أعني الآن بالغاية . إن الغاية أحياناً رخيصة بجانب الوسيلة ، على الأقل في نظر الفن . لأن الغاية في الفن لا تبرر الوسيلة . الحياة كذلك تلك القطعة الفنية التي أبدعها الخالق ، أهى شيء غير وسيلة متينة التكوين ؟ ألها معنى غير ذلك الطريق المبين الذي أوله ضباب وآخره ضباب ؟ خط هندسى رسم على لوح الوجود ، كيف ابتدأ ، كيف انتهى ؟ لا يعنى ذلك علم الهندسة . إنه خط بين نقطتين وكفى . ليس لنا أن نسأل عن غاية الحياة ، ولا عن غاية الفن ، ولا عن غاية العلم . إن الغاية لا تهم . إنما المعنى كله في الوسيلة . الحياة هى الطريق ، العلم هو الطريقة ، الفن هو الأسلوب . أما الغاية فلا غاية . وهل يرتجى من العلم أو من الفن أو من الحياة غاية مطلقة يوماً من الأيام ؟ محال . ما نحن إلا أسلوب الخالق . ما السكون إلا أسلوب . الأسلوب كل شيء عند كل خالق وفي كل خلق . إن الخالق أعظم من أن يحبس إرادته الخالدة في حدود « غاية » : لفظ يدل بذاته على معنى الانتهاء . فى اعتقادى أن كلمة « غاية » هى من صنع العقل البشرى الصغير . هذا العقل المحدود الذى يضع كل شيء دائماً داخل حدود ، ويأبى إلا أن يكون لكل شيء أول وآخر . إنما الخلود فى الأسلوب . لأن الأسلوب لا أول له ولا

آخر ، فهو شيء كائن دائماً لا علاقة له بالزمن . إن رجل الفن ، وهو المقلد الأصغر للمبدع الأكبر ؛ يدرك أن الفن لا يعيش بالغاية . لأن الغاية فانية كاسمها . وإنما يعيش الفن بالأسلوب . لقد انقضت الغاية من تشييد الأهرام ، وفنيت الغاية من بناء البارتيون . دفن الموتى أو عبادة الآلهة الغابرين غاية قد ماتت ، وبقي أسلوب الفن وحده خالداً في الأهرام والبارتيون . خدمة الإنسانية غاية العلم في نظر البسطاء ، ولو سئل عالم في ذلك لابتسم : « مالى وللإنسانية ! إنما أنا أبحث عن سر أسلوب الصانع الأعظم . إنما هى لذة البحث فى ذاتها . إنما هى طريقة البحث وأسلوبه . ولولا ذلك السرور الذى يملأ نفسى إذ ينكشف لى الباحثة عن جمال أسلوب الله لما تجشمت جهداً فى سبيل العلم ، ولما كان للعلم هذا المعنى الرفيع » . المخترعات كذلك ليست غاية العلم . هى تطبيق للعلم إنما العلم هو البحث الخالص المجرد عن كل غاية وعن كل استغلال . لقد كان الإغريق يبحثون ولا يطبقون . فيشاغورس مثل من أمثله الأسلوب الخالد للعلم الخالص . الأسلوب إذن هو محور النقد كما هو عماد الخلق ، وكلية الأسلوب رغبة عميقة كالبحر ، فى جوفها كل كنوز المعرفة التى يصبو إليها البشر ، ولعل كل ما أوتيه الإنسان من سليفه سامية منذ أول الأزمان ليس إلا انعكاس أسلوب الخالق فى نفس الإنسان . هذا المنطق الذى نشأنا عليه ، وزجع إليه فى كل حياتنا ، هذا الإحساس بالنتيجة والسبب ، هذا الشعور بالتناسق

والتناسب ، هذا الإدراك للصلة التي تربط الشيء بالشيء ، من أين جاءنا هذا نحن البشر ؟ أهنالك مصدر آخر غير أسلوب الخالق فتحت البشرية عينيها فألفته حولها ، فهو موجود قبلها وقبل الخليقة كما يوجد الرسم والتصميم قبل البناء إن أسلوب المبدع في صنع الخليقة هو وحده المنبع الأزلى لهذه الصفات كلها : المنطق ، ارتباط السبب بالنتيجة ، والشيء بالشيء ، والجزء بالكل ، والتناسق والتناسب . صفات هي بعينها صفات الأسلوب السليم لكل عمل فني عظيم أسلوب الله هو المعلم الأول والأخير . وما أول صورة رسمها الإنسان على الأحجار وعظام الحيوان سوى إعلان شعوره الخفي بتلك الصفات . إن رجل الفن الأول هو أول إنسان عرف « المنطق » صفة فنية بمد أن كان المنطق سليقة سامية تسبح في أنحاء نفسه ولا يعرف ما هي . إن المنطق الذي شيد الأهرام لهو صورة محكمة للمنطق الذي شيد الكون . ما المنطق ؟ ما معنى المنطق ؟ سره في تلك المرأة العظيمة الصافية التي تحيط بنا كالجدران : الوجود ، أجمل مثال للمنطق في الأسلوب ينبغي لرجل الفن والأدب والعلم أن يطيل فيه النظر . كل شيء في هذا الوجود مصنوع على طريقة واحدة وعلى قاعدة واحدة . ما القاعدة التي بنى عليها الوجود ؟ هي القاعدة التي بنيت عليها الأهرام . هي قاعدة كل بناء : التماسك بين الأجزاء في كل واحد منسق . هذا التماسك ما علمته وكيف يكون ؟ قانون أستطيع أن أفرغه كما يفعل الرياضيون في صيغة بسيطة من لفظين :

«الأخذ والعطاء». كل شيء في هذا الوجود يحيا على نمط واحد. وكل حياة في هذا الوجود لها مظهر واحد. أخذ وعطاء في حركات متصلة متشابهة^(١): زفير وشهيق عند الإنسان والأحياء، اكتساب وإشعاع عند النجوم والأشياء، الأخذ والعطاء قانون التماسك والاتصال في حياة الفرد والمجتمع والأمة والأمم. وفي حياة الأخلاق والسياسة والاقتصاد، في حياة المادة والروح، وفي حياة الأرض والأجرام والسدم ليس في الوجود شيء لا يأخذ ولا يعطي. ليس في الوجود شيء يعطي ولا يأخذ كل شيء يعتمد على كل شيء في هذا الكون. بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا، وكل خلق بنيان، ولا بنيان بغير وحدة شاملة، ولا وحدة شاملة بغير تضامن بين الحجر والحجر، وبين الجزء والجزء. يتساءل هنري بونكاريه في كتابه «قيمة العلم»: «أبحق لنا أن نتكلم في سبب ظاهرة من ظواهر الكون مادام كل جزء من أجزائه متصلا بكل جزء برباط التضامن؟ إن أية ظاهرة من الظواهر لن تكون نتيجة سبب واحد، بل نتيجة أسباب غير متناهية في العدد. إن أية ظاهرة مهما يكن شأنها ليست في الغالب إلا نتيجة لحالة الكون كله في لحظة سلفت». فالكون كله إذن إن هو إلا إناء واحد صنعته يد واحدة من عناصر متآلفة، وهذا التآلف أو التضامن إنما هو وليد ذلك

(١) تعريف شخصي للحياة، أدبي الصيغة بالقياس إلى تعريف «كلود برنارد» العامي الصيغة.

القانون : « الأخذ والعطاء » : ليس هذا كل المنطق في صنع الوجود إنما المنطق تركيب ذلك القانون . ما قوام الأخذ والعطاء ؟ هل يكون أخذ وعطاء إلا بين كائنات متشابهات ؟ ما الحال لو أن الخالق أبدع وجوداً آخر على أسلوب آخر ، فصنع أناساً يعيشون بالزفير ولا ينفون الشهيق ، ومخلوقات تأكل ولا تصرف ، وأجراماً تكتسب الحرارة والضوء ولا تشع ؟ أى اتصال يمكن أن يقوم بين كائنات خلقت على غير أسلوب واحد ؟ لا اتصال ، وحيث لا اتصال لا بناء . لا خلق ولا بناء إذن في الـكون أو في الفن بغير وحدة الأسلوب . كذلك في مادة الأجزاء ، هل يقوم أخذ وعطاء بين أجسام لا تتحد في مواد البناء ؟ أى اتصال بينى وبين أخى وابنى لو أن الخالق صنعني من عناصر غير عناصرها فجعلني من يابس ورطب وجعلهما من نور ونار وغاز وبخار ؟ أى ارتباط لو أنه جعل كل مخلوق منفرداً بمادته وهيئته وعناصره عن كل مخلوق ؟ أى هرم يمكن أن يشيد بأحجار ، أحدها من صخر ، وآخر من عجين ، والثالث من ورق ، والرابع من طين ؟ لا ارتباط بغير تشابه وتماثل . ولا تضامن بين أجزاء غير متجانسة في التركيب . إن كل ما نحس وجوده يتحد معنا في بعض العناصر . بغير هذا ما كنا نعترف له بوجوده . إنا نعرف الأجرام لأن أجسامنا نعرف الحرارة والضوء والحديد . التشابه إذن هو شرط الأخذ والعطاء . الاختلاف كذلك شرط آخر . وهل يقوم أخذ

وعطاء إلا بين كائنات مختلفة؟ ما الحال لو أن الخالق صنع كل شيء
ككل شيء، فجعل كل رجل ككل رجل وكل جرم ككل جرم؟
طبع واحد، ومنظر واحد، وحجم واحد.. أليس هذا التشابه المطلق
ينفي الشخصية؟ وحيث لا شخصية فلا أخذ ولا عطاء، ولا تماسك
ولا اتصال، وهل من صلة بينى وبين غيرى إلا لاختلاف شخصه
عن شخصى وما عنده عما عندى؟ وهل رابطة الأجرام إلا لاختلافها
فى الأحجام؟ الجاذبية الحب، هل علتها إلا اختلاف النسب فى القوى
والأشكال؟ إن مثل هذا الـكون المتماثل لا يمكن كذلك أن يشيد
أو يوجد. مثله مثل قسمة تمثيلية أشخاصها لهم عين الاسم والجسم
والطبع والحظ يتكلمون عين الكلام، ويتحركون عين الحركات
ويتصرفون عين التصرفات! أى علاقة يمكن أن تنشأ بين هذه
المخلوقات؟ وهل يشعر أحدهم بوجود الآخر؟ وهل يدرك أحد منهم
معنى كلمة «أنا»؟ لا بد من بعض الاختلاف بين الكائنات حتى
يتميز كل كائن من الآخر ومتى تميزت الأشخاص والأشياء والأجزاء
نشأ بينها الأخذ والعطاء، سر التماسك فى كل بناء.. ها هنا إذن
قوام التناسق: «التشابه لا كل التشابه، والاختلاف لا كل الاختلاف!»
(بيتهوفن هو الذى كشف لى منذ سنوات عن سر التأليف بين
صوتين فى عين الوقت.. فقد لحظت أنه يجمع بين صوتين متشابهين
لا كل التشابه مختلفين لا كل الاختلاف. وأدركت ألا تناسق بغير

هذا . فلو أنه جعل الصوتين متشابهين كل التشابه لفتى أحدهما في الآخر ، وما ميزنا شيئاً غير صوت واحد . ولو أنه جعلهما مختلفين كل الاختلاف لاستحال على الأذن أن تصل بينهما وهما متباعدان متنافران . فأساس « التناسق » في الموسيقى والفن كآساس التناسق في الحياة والكون : ائتلاف بين الأجزاء لا كل الائتلاف ، واختلاف بينها لا كل الاختلاف

جملة القول عندى أن أسلوب الله في صنع الكون هو وحده منبع الفن ، هو وحده مصدر ذلك الإدراك الانسانى للجمال منذ مبدأ الأجيال . أما نقاد القرن التاسع عشر فلا أحسبهم رفعوا أبصارهم إلى هذا الأسلوب مستلهمين . إنما هم قد خروا أمام تمثال العلم ساجدين ، أنظارهم خاشعة ترنو في رجاء إلى شعاعين من الكهرباء صادرين من عدسات عينية الجامدتين . القرن التاسع عشر قرن تأليه العلم . فلقد بهر العلم العالم بانتصارات حاسمات متواليات . فاذا الأدب والفن والفلسفة كلها تهرع إليه تقر له بالغبية والسلطان . وإذا كل شىء يطلب إلى العلم تفسيراً . وإذا العلم فى نشوة الظافر وبسمة الواثق لا يأتى أن يقضى فيما يعنيه وفيما لا يعنيه : وإذا العلم وهو علم المادة يريد أن يتحدث فى شئون الروح . وإذا سئل عن الروح قال دونكم هذا الطريق وأشار إلى عين الطرائق التى أدت إلى الفوز فى شئون المادة : التحليل والتركيب والتجربة والقياس والاستنتاج

والاستقراء الخ ، بهت العالم لنظرية النشوء والارتقاء ، وآمن الناس أن أصلنا من ماء وخلايا حية وحيوان ظل يسمو في المرتبة على مدى الأزمان حتى بلغ القرد جد الانسان ! نظرية جميلة ، خلب جماها اللب على الرغم من بشاعة ذلك الجد الغول . أما صدقها فجائز من حيث المادة والأجسام . ولكن . . . وهنا القضية : أتصدق هذه على الروح أيضا وشئون الروح ؟ الاحساس بالجمال : أ يخضع أيضا للنشوء والارتقاء نعم ، نعم ، نعم . هكذا قالت المدرسة الانجليزية (سبنسر ، جرانت ألن رسكن) وكان لابد لهذه العقول التي فتنتها نظرية التطور في المادة أن تتردد للناس نظرية التطور في الجمال .

وعجب الناس لنظريات علم طبقات الأرض وعلم الحيوان وعلم الحياة وأبحاث (لامارك) في تأثير البيئة والمناخ وظروف الحياة على طبيعة الأجسام ، فقامت المدرسة الفرنسية (هبوليت تين) تخرج للفكر والادب نظرية للجمال والفن : الوحي فيها والالهام : مقاييس الحرارة وموازين الأحجام !

بل إنى لأرى أصبع العلم قبل ذلك بقرن يقود المدرسة الألمانية إلى نظريتها في الجمال عمانويل كانت . . .

ولم يكف العلم هذا النوجيه والتأثير بل تناول بيديه في هذا المهد الحديث جسم الجمال ، وأعمل فيه المشروط والمسبار (علم النفس الحديث) قضى الأمر ، وخرج الجمال من حداثق الفلسفة إلى معامل العلم . . .

لست أزدري على طرائق العلم . فهي وسائل البشرية التي لا تملك غيرها . وأذكر يوم كنت أرصد وقتاً للتفكير في هذه المسائل أنى بسطت أمام نفسي هذا السؤال الساذج . الحيوان ماعله بالجمال ؟ حصان بين مهرتين إحداهما جميلة مليئة شهباء والآخرى قبيحة هزيلة عرجاء ، إلى أيتهما يميل ؟ ما ترددت يومئذ أن أقول في ثقة واقتناع « إلى الجميلة يميل ، ماوجه الترجيح ؟ لست أدري ، وحسبنا التجربة فهي الحكم الفصل ١ » . لكنني يومئذ كنت أفكر تفكيراً صرفاً في أبراج عاجية اعتمدت أن آوى إليها للتفكير الهادئ ، فأين لي بالخيول والأفراس أجرى عليها التجارب ؟ فهاأنذا أقرب بأن التجربة وسيلة بشرية طبيعية للوصول إلى المعرفة . وأقرب بأنني شعرت يوماً بالحاجة إلى ممارستها في شئون الجمال . غير أنني على الرغم من هذا لا أحب أن أعتقد ببساطة أن نظريات العلم في شئون المادة تصدق دائماً في شئون الروح . لا شيء يستطيع أن يقنعني بأن إحساس الجمال . وليد تطور ونشوء . بل رغبة أن أصبح بغير دليل في يدي أن إدراك الجمال ولد كاملاً في قلب الإنسان منذ رفع بصره وبصيرته إلى أسلوب الله فوعاه . إني أخشى أن نقع في الغلط إذ نطبق نظريات المادة في مسائل الروح ، وهل تستطيع أن تميز قول رسكن وجرافت ألن في الإلياذة : « ... ما كان يعنى الأقدمون بالطبيعة ولا يجماها إلا حين يتصلان بعيش الإنسان . ففي الإلياذة ما كان يوصف منظر طبيعي لذاته ، بل لمنفعته

للإنسان ، كأن يكون مـ مكانا خصيبا يفيض بالحنطة أو أكثر فيه
الجياد . ما كانت الطبيعة سوى إطار للحوادث والأشخاص ، لا إنها
لذاتها محل للوصف . إن الطبيعة لم تحب لذاتها إلا في العصر الحديث ،
حيث استيقظ الإحساس بها . إحساس صاف خالص لا تشوبه
شائبة النفع أو المصلحة . . « ماذا أقول في هذا الكلام ؟ أهو جهل
بمشاعر الأقدمين ؟ أم تورط في تطبيق نظرية التطور والنشوء ؟
أنصدق حقا أن الشعور الرفيع بجمال الطبيعة لم يعرفه القدماء خالصا
لدنهم من الحيوانية ؟ أنصدق أن « هوميرو » لم يحس بجمال الطبيعة
لذاتها ؟ أهذا رسكن يقول هذا الكلام ؟ أما أنا فقد مضى كلامي
في الطبيعة والقدماء ، ورأي الذي أبديته في رسالتي الأولى أن الأقدمين
كانوا أقرب منا إلى الطبيعة وإلى فهمها . لقد كان الأقدمون يحسون
أنهم جزء من الطبيعة ونعم من أنعامها . أما رسكن وأن أو الإنسان
الحديث فلا يحس إلا ذاته الأدمية منفصلة عن الطبيعة وعن كل شيء
دليلي في القدماء من مصريين وإغريق . أهذا فن قوم لا يحسون
الطبيعة لذاتها ولا يدركون قوانينها وأساليبها ؟ إلى هذا الحد يصل
الانقياد إلى النظريات ؟ من أجل هذا لا أريد التمكن للعلم حتى
يجلس على عرش النقد دون شريك . أحب طرائق العلم . لكنني
أخشى نتائج العلم . فلترفع بالروح قليلا . لست أريد أن أضع الروح
تحت مبضع العلم ، رهبة مني أن يشقها فيجدها غلafa أجوف . وإني

لا أنسى يوم شاهدت تشریح جثة آدمي المرة الأولى . أي قاق
يومئذ مزق إيماني بقيمة الانسان . كلا . إني كرجل من رجال الروح
لا أريد أن أفجع في خير ما أعيش به وله . يريح نفسي دائماً أن
أقول إن عقل العلم لا يكفي . ولا بد دون إدراك الجمال والروح من
العودة إلى القلب . أريد ألا يخرجني العلم من ذلك الايمان الذي
كان يضيء في قلوب المصريين القدماء إيمان قريهم من
الخالق ، فاذا هم ببصائرهم العميقة العجيبة أول آدميين استطاعوا
فهم أسلوب الله والنفوذ إلى قوانين إبداعه . إن أقصى العلم الايمان .
أحب ذلك العلم المؤمن الشاعر الذي عرفه أيضا الفلكيون العظام في
القرنين السادس عشر والسابع عشر : كوبرنيك ، وجاليليه ، وكبلر ،
آخر قطرة من ذلك العلم الممزوج بالايمان ، كانوا ينظروا إلى الكواكب
كما نظر إليها من قبل المصريون الأقدمون لابين العقل وحده ، بل بابين
القلب أيضا . كانت السماء والنجوم في نظرهم مخلوقات حية . كانوا
أيضا يحسون في كتلة النجوم وفي هذا السكون بأكله الروح الخالقة ويد
المبدع الأعظم . ما أروع هذه العبارة من كبلر ، فيها تاخيص جميل
لكل ما يملأ نفسي : « . . كل الخليفة ليست إلا سمفونية عجيبة في
مجال الروح والأفكار كما هي في مجال الأجسام والأحياء . كل شيء
متناسك مرتبط بعري متبادلة لا تنفصم كل شيء يكون كلا متناسقا .
إن الله قد خلقنا على صورته ، وأعطانا الاحساس بالتناسق كل ما يوجد

حي متحرك ، لأن كل شيء متتابع متصل ، كل كوكب وكل نجم إن هو إلا حيوان ذو نفس . إن روح النجوم هي سر حركتها وسبب ذلك الحب الذي يربط بعضها إلى بعض ، وتعليل ذلك النظام الذي تسير عليه الظواهر الطبيعية . . « أولئك رجال ساروا في بيداء العقل دون أن يفسوا دليل القلب ، أولئك هم العلماء العظام ! أرى أنك قد استشففت رأيي بعد هذا التمهيد . نعم ولا أخشى أن أجيب الآن عن السؤال فأقول إن التيارات الثلاثة التي ذكرتها تصدق أيضاً في النقد كما تصدق في الخلق . أما التيار الأوربي في النقد فهو المرتكز على العلم . ولقد وصل إلينا هذا التيار بالفعل وتأثرنا به . وإن بعض كتب النقد التي ظهرت أخيراً في مصر الحديثة تنم عن هذا الاتجاه العلمي وهو أمر لا بأس به ، بل هو واجب محتوم ، على شريطة أن نقرن به ونضيف إليه عناصر جديدة ووسائل أخرى مستخرجة من أرضنا وتراثنا إذا أردنا أن ننشئ لآدابنا طريقة شخصية كاملة في النقد . فأما التيار المصري القديم فهو النقد المعتمد على الذوق أي سليقة المطلق والتناسق ، وهو عند المصريين القدماء سليقة المنطق الداخلة للأشياء والتناسق الباطن أي القانون الذي يربط الشيء بالشيء ؛ أي جمال للأهرام غير ذلك التناسق الهندسي الخفي وتلك القوانين المستترة التي قامت عليها تلك الكتلة من الأحجار ، جمال عقلي داخلي ، كذلك أسلوب الخالق لا يعني دائماً بالجمال الظاهر وحده في خلق الطبيعة . فأى

جمال لجبل المقطم ؟ إن الجمال الظاهر نسبي لا يقدره غير الإنسان ،
 إنما المنطق الداخلي للأشياء هو كل جمالها الحقيقي ، هذا الإدراك
 للجمال الخفي فطن إليه المصريون القدماء يوم صنعوا « الأهرام » ، فهم
 لم يرموا إلى الجمال الظاهر الذي يسر العين ، إنما أرادوا أن يصنعوا
 بأيديهم البشرية ظاهرة من ظواهر الطبيعة ، في روعتها وضخامتها وقوة
 تأثيرها . وقد تمت المعجزة . وإذا الأجيال على مدى آلاف السنين
 تعبرا هرام عبورها جبل المقطم سواء بسواء وكأنما اختلط الأمر
 في ضمير الزمن وضمير البشرية فارتفع هذا « الخلق الأدنى إلى مقام
 الظواهر الطبيعية ! أولئك قوم أرادوا أن يقلدوا أسلوب الله في عظمته
 ودقة قوانينه ، فأعانهم الله على ما التمسوا ، وكشف لهم عن بعض أسرار
 وطرائقه ! هذا المقياس المصري القديم للجمال ما أحسبه قد أثر بعد
 في حياتنا الفكرية أو في أحكامنا الفنية . أما التيار العربي القديم فهو
 المتعد الذي قوامه ذوق الحس ، أي سليقة المنطق الظاهر والتناسق
 الخارجى . الجمال عند العرب هو الجمال الظاهر الذي يسر العين ويلذ
 الأذن . أنستطيع أن نتخيل العرب تبني الأهرام أو تقدر فيها جمالا ؟
 لقد جاء العرب مصر وتحدثوا بجمال نيلها وأرضها وسمائها ولم يروا في
 الأهرام إلا شيئا قد يحوى نقوداً مخبوءة ، أما بناؤه فشيء لا يحسب
 في الفن . إنما الحس عند العرب حسن الهيئة قبل كل شيء . المساجد
 كالعرائس تكاد تخطر حسناً بزخارفها ، زينة للناظرين . بغير هذا فلا

BRITISH LIBRARY

عمارة ولا فن. الشعر رنين لذيذ ، وخيال جميل ، ومعان لطيفة وألفاظ مختارة ظريفة ، بغير هذا فلا شعر ولا فن . الجمال عند العرب جمال إنسانى والفن عندهم شيء صنعه الانسان لنفسه والمذته . الفن العربى القديم فن إنسانى دنيوى ، والفن المصرى القديم فن إلهى دينى : لهذا اختلفت المقاييس فى الجمال بين الفنيين ، أحدهما يعنى بالتناسق الشكلى الذى يروق الانسان ، والثانى يعنى بالتناسق الخفى بغير التفتات إلى الانسان . ولعل المقياس العربى القديم هو فى مصر المنفرد حتى اليوم بالحكم فى فضايا الشعر والأدب .

هذا المقياس العربى ذو الابرة الدقيقة عجيب فى تسجيل كل انحراف عن منطق الألفاظ . إنما هنالك فى اعتقادى منطق آخر مستتر ، أمره يعنى المقياس المصرى .

إنى يوم قلت بمزج الروح بالمادة فى آدابنا كان يجب على أيضاً أن أقول بوضع المقياس المصرى فى النقد بجانب المقياس العربى . . .

كوم حاده فى سبتمبر عام ١٩٣٣ من رسالة إلى طه حسين

بين الخالق والناقد

... حقيقة أذكرك أنك كنت عازماً على نقد كتابي « محمد »
فما الذي منعك ، وأذكرك أيضاً أنك أفضيت إلى بخوفك أن يسيء
بعض رجال الدين فهم مرادك فأضار أنا بذلك ، وهي عاطفة نبيلة
حمدتها لك . على أني فيما أذكرك أيضاً قد شجعتك على المضي في نقدك
وهو في جملته لا يؤيدني . بل إنني قد وافقتك عليه معجباً بفراستك
مقدراً لبراعتك في الوقوع من فورك على المواطن التي يجوز فيها
النقد والكلام . فأنت ترى أن المؤلف لم بغضب ، بل ابتسم واغتبط
ليقظة الناقد . في الواقع أني لست أومن كثيراً بتلك الأسطورة التي
تروى عن غضب المؤلفين . واسمح لي أن أتكلم بلسانهم فاقول إن
هذا الغضب لا يجد سبيلاً إلى نفس الكاتب إلا إذا شعر من ناقد
بعزوف عن الحق والجد ، ونزوع إلى الخط من القدر مبطن بسوء
القصد . فالناقد الذي يحترم شخصي ويهدم عملي لا يغضبني لأنني أعلم
أن الأديب لا يهدمه النقد ، فهو كائن ممتاز لا يهدم ، ولا يقبض إلا
بأذنه ولا يقضى عليه إلا بآرادته . إن الأديب لا يموت مقتولاً ، بل
يموت منتحراً . ومع ذلك فاني لا أحب للمؤلفين أن يغضبوا على أي
حال ، فإن الغضب علامة الضعف الأدبي . ولا شيء في الوجود أقوى
من الابتسامة ، والسكن من ذا الذي أعطى القدرة على الابتسام الصافي

الجميل في كل موقف وفي كل حين ؟ أهو الجبار وحده ؟ ألا ترى معي أن الجبروت إنما هو الصفاء ؟ . (إذا أردت أن تسلك طريق السلام الدائم ، فابسم للقدر إذا بطش بك . ولا تبطش بأحد) . . . تلك كلمة لعمر الخيام ، وضعتها في صدر كتابي (عصفور من الشرق) الذي لم أكتب منه في سنوات ثلاث أكثر من ثلاثة فصول . وإنك لتعجب إذا قلت لك إن هذا البطء أو هذا العجز مرجعه علة واحدة قد انكشفت لبصيرتي آخر الأمر : عدم استكمال الصفة العليا التي يرتديها بعض رهبان الفكر كما ترتدى المسوح : الصفاء .

إن كنت من رأيي في كل هذا فإن لي عندك حاجة : أن تنثر معي تلك الإبتسامة بين الأدباء ، فإن الأدب شيء جميل ، هو جنة لا صخب فيها ، وهو معبد لا تدخله الأحقاد . إن أعجب ظاهرة في أدبنا أنه لا توجد فيه صداقات عظيمة جذيرة أن يتحدث عنها تاريخ الأدب ، تلك الصداقات التي نراها في آداب الحضارات الكبرى . قد أنتجت من الرسائل والأخبار والآثار ما لا يقوم بمال . ما الذي يعوزنا نحن ؟ أهو شيء في الخلق ؟ أم هو ضعف في النفس ؟ أم هو نقص في الثقافة ؟ لست أعلم . إنما الذي أعلمه : أن الصداقة الخالصة بين رجال الأدب والفكر ، هي أظهر دليل على نضوج هذا الأدب ، وهذا الفكر .

القاهرة في يونيو عام ١٩٣٦ من رسالة إلى أحمد أمين .

في الأدب والفن والثقافة

غاية الأدب والفن

... « هذا هو الأدب الأمريكي يحمل لواءه اليوم رجال مارسوا الحياة العملية في شتى شئونها . ثم لم يكتبوا في خيال وأوهام وأحلام ، إنما يكتبون في أكثر ما يكتبون في مشكلاتهم الحالية ومسائلهم اليومية وحياتهم الاجتماعية ، وأكثر هؤلاء لا يستوحون أساطير اليونان والرومان ، وإنما يستوحون مجتمعاتهم وما فيه وما يصبوا إليه . فلا أدب العربي أن يستوحى امرأ القيس أو « شهر زاد » ! ولكن يجب أن يكون ذلك نوعاً من الأدب لا كل نوع ، ولا هو النوع الغالب ولا هو الأرقى . » ^(١)

مع الأسف أراني مضطراً أن أقول للصديق المبجل إن استيحاء أساطير اليونان والرومان وامرء القيس و « شهر زاد » هو النوع الأرق في الأدب . في كل أدب . . لا في الماضي وحده ولا في الحاضر . . بل في الغد أيضاً وبعد آلاف السنين ، ما دام الإنسان إنساناً ، وما دام رقيه الذهني بخير لم يصبه نكاس . فلا إنسان الأعلى « الذي يضيون » الجمال الفنى » عن الاستغلال الأرضي في أى صورة ويحتفظ فيه لمتعته الذهنية وثقافته الروحية . وإن اليوم الذي نرى فيه « الأدب » قد استخدم للدعايات الاجتماعية ، و « التصوير »

(١) من مقال لاجد أمين نشره في مجلة « الثقافة » عام ١٩٤٤

استغل في معارض الاعلان عن السلع التجارية ، و « الشعر » جعل أداة لإثارة الجماهير في الانتخابات السياسية ، هو اليوم الذى نوقن فيه بأن الإنسان قد كرر فانقلب طفلاً يضع في فمه تحف الذهن وطرف الفكر ، لأنه لا يدرك لها نفعاً غير ذلك النفع المادى المباشر . والأدب الأمريكى الذى يعجب به أحمد أمين بك هو فى أغلبه صحافة راقية أكثر مما هو أدب حقيقى . والأدب الحقيقى فيه هو ما استند إلى أساطير اليونان والرومان ، أى مخلوقات الانسانية التى أبدعتها أحلامها الجميلة وخيالها الرائع . فالتحالف بينى وبين صديق أحمد أمين هو على معنى « الرقى » ، فأنا لا أسلم أبداً بأن رقى الانسان هو فى تقدم أسباب معاشه المادية . هذا حقاً هو الرقى بالمعنى الأمريكى ، ولكن الرقى بالمعنى الانسانى المثالى شئ غير ذلك . إن الانسان الأعلى ليس ذلك الذى يضع كل شئ فى فمه ولكنه ذلك الذى يشعر بحاجته إلى متع معنوية وأغذية روحية وأطعمة ذهنية لا علاقة لها من قرب أو بعد بضرورات حياته المادية أو الجثمانية هذا هو الفرق الوحيد بين الانسان والحيوان . فالحيوان لا يحتاج إلى أن يطرب لبديت من الشعر أو لصوت من الغناء أو التمثال من الرخام ، ولا يمكن أن يخطر له على بال وجود عالم آخر غير عالم الآكل والشرب والمأوى . ولو نشأ أدب بين فصيلة من الحيوان لكان هذا الأدب فى رأى قائماً فى جمته على مشكلات العراك على صيد الفريسة ولا تقتصر خياله على الحلم بأن فى بطن كل سبع غزالاً سميناً ، وفى فم

كل حيوان في الغاب صغر أو عظم غذاء موفوراً بغير وثب ولا بحث ولا ترص بل فلنأخذ مثلاً جماعة النحل أو النمل وقد بلغت من الدقة والتناسق وروح التضامن في نظامها الاجتماعي ما أثار الدهشة ، هذا المجتمع الذي شيده النحل على هذا الأساس من «الوعي الاجتماعي» لا «الوعي الفردي» لوقامت فيه نخلة شاعرة أو أديبة ، أو ظهر فيه أدب وشعر ، فما يكون نوعه واتجاهه ومراميه ؟ لاشك عندي أن هذا الأدب أو الشعر سيكون له عين المرامي التي ينزع إليها الأمر بكان ويتمناها لنا أحمد أمين . سيتحدث أدب النحل وشعره عن الأزهار من حيث كمية عسلها ، ونصيب كل عامل من عمال النحل في نقله وإعداده والانتفاع به في الخلية ، وعن حقوق الطوائف العاملة وواجباتها ، ومشكلاتها اليومية وشئونها الحيوية . أما الذي لن يحدث أبداً فهو التفات النحل في أدبه أو شعره إلى حسن الأزهار في ذاتها ، وإلى بهائها في ألوانها ، وإلى تمايلها اللطيف مع النسيم كأنها تراقصه ، وإلى تفتحها ابتسامة للفجر وهي تعافقه ، وإلى نداها بدموع الليل وهي تفارقه . . . لن يفطن النحل إلى هذا أبداً . . . ولو فعل لانتقلب إنساناً في لحظة واحدة . كل فضل الإنسان على غيره من المخلوقات أنه ارتفع إلى العناية بأشياء معنوية لاتصل مباشرة بطعامه وشرابه ومقومات حياته المادية . وهذه الأشياء سماها فيما سماه : الفن والأدب ، وحرص على أن تبقى على قدر المستطاع بعيدة عن تفاهاته الأرضية ، لتذكوه

من حين إلى حين أنه ليس حيواناً . وهنا عظمة الفن والأدب . ولكن مطامع الناس شامت أن تمد أيديها الفانية إلى هذا الجوهر السامى لتسخره فى شئون الأرض ، فرأينا الشعر والأدب يتجهان إلى غايات نفعية ، فاستخدم الشعر أحياناً لمدح الملوك والأمراء من أجل المال والثراء ، أو لنشر الدعوة فى الدين أو السياسة من أجل الثواب أو الجزاء . ولكن كلمة الفن هى العليا دائماً ، وحكمه هو النافذ وحده . وهما هو ذا قد حكم لامرئ القيس الجاهلى رفعة وقدمه على داعية الاسلام حسان . وفى هذا الدليل على أن الفن الخالص لوجه الجمال الفنى هو الأرقى والأبقى وذلك ما لا يسلم به أحد أمين . فهو يعتقد أن الفن المسخر لخدمة الضرورات اليومية فى المجتمع هو الفن الأرقى ، متأثراً ولا ريب بتلك النظريات الحديثة فى السياسة والاقتصاد التى ترمى كلها إلى تملق الجماهير ومداهنة الدهماء ومصانعة الجماعات والنقابات والهيئات ومسايرة الكتل والسواد من الناس والشعوب ، موهمة إياهم يجعل كل شئ فى خدمتهم . وخدمة الجموع معناها خدمة مصالحهم الأرضية المادية من مأكل ومشرب ومأوى ، لأن السواد والكتل لن يطلبوا أبداً ولن يقبلوا ولن يعرفوا غير هذا النوع المادى من المطالب . فاذا أردنا تسخير الفن فى هذه الأغراض فمعنى ذلك

الهبوط به إلى ذلك اللون من النحل . . . أو على الأقل إلى ضرب من أدب الدعاية والوعظ والهداية .

أما إذا كان في الإمكان وجود فن يخدم المجتمع دون أن يفقد ذرة من قيمته الفنية العليا فاني أرحب به وأسلم من الفور بأنه الأرقى . ولكن هذا لا يتهياً إلا للأفذاذ الذين لا يظهرون في كل زمان . فمن أين لنا في شعرنا بأمثال « المتنبي » ؟ لقد أعدت قراءة ديوانه منذ أسابيع لأنظر كيف بقي ذلك الشعر الذي خرج من وحى الدنانير . الحق أن المال كان باعته ولكن الفن كان غايته . ذلك الذهن الذي أبدع صوراً ترى لها أحياناً حركة ويمصر لها بريق ويسمع لها رنين ، كما في قوله :

وأمواء تصلُّ بها حصاها صليل الخلى في أيدي الغواني
ماذا يعنيها منه أن يكون حافزه استجداء مال أو مدح ذى سلطان
أو خدمة مجتمع أو تملق شعب ؟ المهم أن يكون هنالك فن قبل كل شيء . بغير هذا ما عاش لنا « المتنبي » حتى اليوم . فالسلطان يذهب والدولة تدول والشعوب تتغير ، ولكن الفن باق . .

أما بعد ، فليتنجس الأدب العربي حيث شاء له أحمد أمين . وليخدم الجماعات ومشكلاتها الحالية ومسائلها اليومية ومطالبها المادية ، وليبتعد عن « الفردية » التي هي أساس كل فن ، والتي بغيرها لا يقوم فن وليتنجب « تراجم الأفراد أو ترجمة الكتائب لنفسه أو تحليل الأديب

لبعض الشخصيات أو روايات الغرام « أو نحو ذلك مما يراه صديقي
من قبيل النزعات الفردية ، ولننكر الحقيقة القائلة إن « الفنان إذا لم
يقُل « أنا » فهو ليس بفنان ، كما أن العالم الذي يقول « أنا » ليس
بعالم » لننكر ذلك مؤقتاً ولننتظر . . عسى أن يخرج لنا أثر فيه الفن
وفيه منفعة السواد . .

الفن والاصلاح

لم يزل موضوع الأدب العربي ومستقبله في حاجة إلى كلام ، على الرغم من الأدلة القوية التي ساقها أحمد أمين في رده على كتبي السابقة . وأخشى أن يتبادر إلى الذهن أننا نتجادل في قضية لنا فيها مصلحة . فالواقع المعروف أن أكثر مؤلفات أحمد أمين مثل « فجر الاسلام » و « ضحى الاسلام » و « قصة الفلسفة » الخ . بعيدة عن الاتجاه القومي أو الاجتماعي الذي يرجوه لأدبنا العربي ، كما أن « بض كتبي مثل « عودة الروح » و « يوميات نائب في الأرياف » قد رمت بالفعل إلى هذا الهدف منذ زمن . فالقصة الأولى (عند ما نشرت بالفرنسية في باريس عام ١٩٣٧) كتب عنها ناقد يقول : (لو كان بريس Barrès) ^(١) حياً واطلع عليها لنعتها بقصة النشاط القومي). كما أن الكتاب الآخر يرمى كما هو معلوم إلى نقد المجتمع الريفي بحكامه ومحكوميه ، فأنا إذن أقرب إلى تلك الدعوة ولي في نجاحها مصلحة أكثر مما لصدقي أحمد أمين . ولكن العقيدة الأدبية والايمان الفني أقوى فيما يبدو وعند كل منا وأرفع من المصالح الخاصة والغايات الشخصية ، فمننا قشتنا اليوم تقوم في جوهرها إذن على الرغبة المجردة في الوصول إلى غرض واحد : هو كيف نبلغ بأدبنا العربي قمة الكمال ؟ الغاية واحدة ولا ريب ، ولكن

(١) الكاتب والسياسي المشهور صاحب المؤلفات القومية النزعة .

السبل مختلفة ، فأحمد أمين يرى أن أدبنا لن يصل إلى مرتبة الآداب الأوروبية إلا خاض مثلها في طريق الحياة العامة ، فنقد الفساد من أوضاع المجتمع ، وقوم المعوج واقتراح وسائل الإصلاح ، ونادى بالنافع من العلاج ، والمستحدث من النظم ، وكان له من أعلامه قادة للرأى العام يبصرونه بمواقع خطاه في طريق التقدم الاجتماعى ، وأتخذ من أناتول فرانس وبرناردشو وتولستوى مثلاً يحتذى .

وهنا يجدر بنا أن نسأل : هل من الحق أن الأدب الأوروبى بلغ مبلغه هذا بفضل نزوله معترك الحركات الإصلاحية ، أو بفضل قيمته الفنية ومزاياه الأدبية ؟ وهل نزعات الإصلاح الاجتماعى هى اللون الغالب فى الآثار الأوروبية ، أو إنها لون ليس بالغالب حتى فى آثار المؤلف الواحد ؟

الذى أعلمه هو أن أناتول فرانس أديب ، وأن برناردشو مؤلف مسرحى ، وأن تولستوى قصصى . وتلك هى صفاتهم التى تؤخذ على سبيل الجد . أما ميول فرانس وشوا اشتراكية ونزعات تولستوى الإصلاحية ، فهى نواح ينظر إليها تارة بغير احتفال ، وتارة أخرى على أنها توابع أوظواهر ودلائل قد تفسر على ضوءها بعض أعمالهم الأدبية وآثارهم الفنية .

إن الآداب الأوروبية لم تحترم يوماً فنانياً أو أديباً لأنه مصلح ، وليكنها قد تحترم المصلح إذا كان أديباً أو فنانياً . ولعل أبرز مثل

لذلك هو (إيسن) ، فقد هزته أحداث بلاده السياسية والاجتماعية
فكتب تمثيليات مفعمة بروح الاصلاح مثل (براند) و (عدو الشعب)
و (بيت العروس) الخ . ومات إيسن وتغير مجتمعه ونظر الناس في
أعماله . . . وكاد يهزأ بالنقد به وبآرائه في السياسة والمجتمع ، لولا فنه
وهكذا مات المصلح في إيسن وبقي الفنان .

نحن الشرقيين تبهر عيوننا دائماً كلمة (مصلح) بقدر مانستهين
بكلمة (فنان) ، وإني لأأنى دهشى يوم قرأت في مجلة (ماريان)
الباريسية نقداً للطبعة الفرنسية من (يوميات نائب في الأرياف)
للقائد المعروف (رامون فرنانديز) يقول فيه : (إن القارىء لهذا
الكتاب يفنى في أغلب الأحيان المقاصد الاصلاحية التي حركت
المؤلف لوضع كتابه ، بل إن القارىء يتمنى ألا يتغير شيء في عالم هذه
المخلوقات الانسانية) صدمني هذا القول لأنى كنت أعتقد أن مقاصد
الاصلاح لها الاعتبار الأول في مثل هذا النوع من الكتب ، وأن
صفة المصلح هي التي يجب أن توضع موضع التقدير

لقد تحدث الأستاذ أحمد أمين في أكثر من موضع عن الرويات
الغرامية وعرامة الحب بما ينم عن الازدراء . . فذكرني ذلك من
فوردى برواية شكسبير (روميو وجولييت) ، وقلت في نفسي :
هاهي ذن قصة ليس فيها إصلاح لمجتمع ولا نهوض بشعب ، وكل
ما فيها عرامة الحب . ومع ذلك فقد خلقتها الإنسانية حيث طرحت

ومزقت كثيراً من صفحات المصلحين وكتابات الهادين والمرشدين . إن الإنسانية لأدري بما يسرها وأعلم بما يسعدها مني أنا ومن أخى أحمد أمين . كم من المؤلفات المملوءة بالارشاد والإصلاح قد نشرت وظهرت ولم تحتفظ بها ذاكرة الزمان .. ولكنها احتفظت بقصة غرام وقصيدة غزل ورواية حب عارم .. وإذا كان حقاً أن الزبد يذهب جفاء وما ينفع الناس يكثر في الأرض فماذا نقول في بقاء (رومي وجليلى) وفناء الكثير من القصص الانكليزية الذى قصد به إصلاح المجتمع؟ بل ماذا نقول فى خلود قصة (غادة الكاملية) لدوماس الصغير وموت أكثر رواياته الأخرى التى عالج فيها موضوعات اجتماعية كلها جدد وحسن قصد ..

كلا . لا ينبغي أن نمل على الفن اتجاهاً بعينه . ولا يجوز لنا أن نوصيه بارتداء لباس الحكمة الرزينة أو رداء الإصلاح الوقور .. إلا أن يشاء هو ويرضى .. لأننا إذا أرغمناه سخر منا وجعل من أردية رزانتنا ووقارنا أثواب مسخرة ، وقلب بسحره أثواب الهزل خلوداً تنحنى أمامه الجباه على الرغم منا . لقد أصاب (أندريه جيد) إذ قال إن الفن لا ينبغي له أن يثبت شيئاً ولا أن ينفى شيئاً . إن الفن العالى ليس أداة للجدل . إنما هو شيء كالسحر ينفذ إلى النفوس فيحدث فيها أشياء . إن الفنان ليس مصلحاً ولكنه هو صانع المصلح كل أولئك المصلحين من ملوك وزعماء وساسة ما كونهم وهياهم

لرسالات الإصلاح غير أدب الأدباء وشعر الشعراء وفن الفنانين إن الفنان هو مصلح المصلح ولا شيء غير ذلك . أما أن ينزل الفنان بفنّه إلى الميدان يناقش ويدافع ويهاجم وينافح . فهذا ما لم نره حتى الآن في فن استحق البقاء في أي أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات . من الحق أن بعض أهل الفكر والفن قادوا الرأي العام في بلادهم وبلاد العالم ، ولكنهم كانوا في الواقع يفعلون ذلك باعتبارهم شخصيات عظيمة مفكرة من واجبها أن تبتدى آراءها في المسائل الكبرى ، لا باعتبارهم فنانين يحمون قنهم في ميادين الشؤون اليومية . لطالما تحدث الشاعر « فاليري » عن المشكلات الإنسانية التي تمس المجتمع العالمي الحاضر ، ولكن هل رأيناه وضع ذلك في قصيدة واحدة من قصائده ؟ إن قيادة الرأي العام واجبة على الأديب . ولا ينسى أحمد أمين ندائى إلى الأدباء أن يتسلموا القيادة الروحية والفكرية في أول هذه الحرب ومقام حول هذا النداء من جدل ، ولكن الذى أراه خطراً على الأدب هو قهر الأديب على أن يتجه انجماً ببعينه في صميم فنه . وحسبنا أن نتأمل حال الأدب في البلاد المكتاتورية التي كبتت وحى الأدباء بالقيود . فلم تخرج من قلوبهم إلا كتابات مفتعلة تفوح برائحة واحدة كأنها خارجة من مطبخ واحد . إن الفن هو الحرية ، حرية الفكر والشعور . ولا منبغ له إلا فكر الفنان وقلبه ، هما وحدهما الهاديان له . إن الوعي الفردى هو روح الفن ، فاذا أردنا إبادة الفن واستئصاله من الأرض فلنقتل فيه ذلك الوعي

الفردى . ولقد أصاب صديق الطرفين الكاتب الكبير العقاد إذ قال في تعليقه على مناقشاتنا هذه : « إن اتجاه التاريخ الإنسانى متقدم من الاجتماعية إلى الفردية » . وهذا حق ، إذ الفردية هى عنوان الكرامة الإنسانية . هى شعور الإنسان بقيمة فكره وإحساسه لا بفكر الجماعة وإحساسها . إن الحيوان لا يفكر بفكره ولا يحس بإحساسه . إنما هو يفكر ويحس بغريزة الجماعة كلها والنوع كله . ولن يرقى الحيوان إلى مرتبة الإنسان إلا إذا استقل فى تفكيره وإحساسه . إن الوعى الاجتماعى فى الحيوان هو الذى جعل الحيوان حيواناً والفردية أى الحرية هى التى جعلت الإنسان إنساناً . على أنه لا ينبغى الخلط بين الفردية والأناية . فأنى حينما قلت إن « الفنان الذى لا يقول (أنا) ليس بفنان ، كما أن العالم إذا قال (أنا) ليس بعالم » . إنما قصدت إلى المعنى الفنى لا المعنى الخلقى . قصدت أن الفنان هو الذى يقول « إن الطبيعة جميلة » . لأنى أراها جميلة أما العالم فلا ينبغى له أن يقول ذلك ، ولكن عليه أن يقول : « الطبيعة جميلة أوقبيحة ، ساكنة أو متحركة » ، لأن البحث والتحليل والبرهان والدليل تؤدى إلى هذه النتيجة . الفنان هو الذى يكشف عن الطبيعة من خلال نفسه المجهر . والعالم هو الذى كشف عن الطبيعة من خلال المجهر وكلاهما يكمل الآخر فى بناء المعارف الإنسانية ولا ينبغى لأحدهما أن يلبأ إلى وسائل الآخر فى استجلاء الحقائق واستكناه

الطبائع . إن الفن مصدره الشخص ، والعلم مصدره الموضوع . الفن
شخصي والعلم موضوعي . الفن يقول « أنا » أي « نفسي » ،
والعلم يقول « هو » أي « الشيء » .

أما أن يخدم الفنان والعالم أمته وقومه فهذا واقع بالبداية
والضرورة ، لأن آثار الفن والعلم لا تبقى ولا يمكن أن تبقى إلا إذ
رأى الناس في بقائها منفعة . فلا ينبغي أن نقول للفنان والعالم :
« إصنعوا شيئاً نافعاً للناس » بل يجب أن نقول لهما فقط : « إصنعوا
فنّاً وعالماً »

منابع الفن المصرى

فى عام ١٩٣٣ عقب نشر كتابى « أهل الكهف » جاءنى أديب
صحفى بمحادثة فى شأنه ويسألنى فيما حملنى على اختيار موضوعه ، فأجبتة :
— حملنى على ذلك شىء واحد : الرغبة فى كتابة مأساة مصرية
على أساس مصرى . إنك تعلم أن أساس المأساة الاغريقية هو « القدر » .
هو ذلك النضال الهائل بين الانسان والقدر ! فهل تعلم ما أساس المأساة
المصرية كما أتصورها ؟ أساسها : « الزمن » ، أساسها ذلك النضال
الهائل بين الانسان والزمن . اقرأ « كتاب الموتى » تحس ذلك للفور
عند الاغريق هو « القضاء والقدر » وعند المصريين هو « الزمان والمكان » ،
لكل من الشعبين تنين مخيف كتب على الانسان قتاله ! وأنت ترى
أن « تنين » المصريين وهو « الزمان والمكان » رأسه فى هذه الأرض
وذنبه فى العام الآخر المجهول . نعم إن مصر لا يمكن أن تفكر فى غير
الخلوص إلى حياة أخرى . دائماً ما وراء الطبيعة . دائماً الفلاسفة الدينية .
دائماً ذلك الفرع من الموت وذلك الأمل فى انتصار الروح على الزمان
والمكان ! وذلك الانتصار إنما هو فى « البعث » . . . بعث لا إلى
عالم آخر لا يعرف الزمان والمكان ، وإنما بعث إلى عين هذا العالم
ونفس هذه الأرض بزمانها ومكانها . ولقد شيدوا الأهرام لتقوى
على هذا التنين . حصون الروح فى حربها الخفيفة مع عناصر الفناء الأدمى .

التحنيط كذلك اختراع آخر ولدته ضرورة الدفاع في تلك الحرب
الضروس ! أين تلك الحروب من حرب طروادة ! لم تكن مصر
في حاجة إلى هوميروس منها يسطر أخبارها : لأن صليل
تلك الحرب لا يوصف من قلم بشري . إنها صيحات الروح تدوى طول
الأبد من بين سطور « كتاب الموتى » . إن أعظم مأساة لم تدون
ولا يمكن أن تدون : المأساة المصرية ! . وبعد هذا تسألني ما الذي
حملني على كتابة « أهل الكهف » ؟ إنها صورة ضئيلة وصدي خافت
لتلك المبارزة بين « الزمن والإنسان » وفي قصتي (شهر زاد) صورة
أخرى لمبارزة بين (الإنسان والمكان) .

— إذن أنتم تقولون باستيحاء الفكر المصري القديم ؟

-- إني أقول باستيحاء كل ما هو مصري .

— وكيف يتميز ما هو مصري عما هو دخيل على مصر وقد دخلت

مصر وتداولتها حضارات مختلفة ؟

— في مصر أفكار ثابتة لم تتغير إلا قليلا منذ عهد الأساطير

الأولى حتى اليوم . ذلك لأنها متصلة بصميم هذه الأرض ، ومستوحاة
من نفس طين هذا الوادي الخصيب ، ومن نفس هذا النيل الخالد .
إن أفكار الإنسان وعقائده ودياناته وخرافاته إنما تولد من مظاهر
الحياة التي حوله . ما اليونان بأساطيرها وفلسفتها بغير البحر المتوسط
وجزر اليونان ؟ وما أساطير النرويج بغير الغابات وبحر الشمال ؟ وما

فلسفة الهند بغير نهر الجانج المقدس وأدغال الهند ؟؟ . كذلك هل يتصور تفكير مصرى بغير هذه الأرض الخصبة البطحاء التى تلد الخير فى كل عام دون أن يصيبها العقم أو يبدو عليها الهرم ؟ شبابها خالد . هذا الشباب الذى تفهمه مصر حق الفهم . وهامى ذى آثار مصر منذ الأزل من تماثيل وصور على حيطان المعابد ، هل شاهدت فيها تمثالا واحداً يمثل إنساناً هرمًا ؟ كل تماثيل مصر وصورها تمثل الشباب لأن كل مظاهر الحياة فى مصر من أرض وماء وسماء فتية قوية رقيقة تتجدد وتبعث وتوحى بالحياة الدائمة . إن العمر لا وزن له فى مصر . آلهتهم وملوكهم وكهانهم وعبيدهم حليقون نحفاء لا يبدو عليهم عمر ولا سن ولا أثر واحد من آثار الزمن . شباب وفتوة وقوة كهذه الأرض السوداء البطحاء ، التى ما وخطها قط المشيب . إن الزمن لا وزن له عند مصر ، خوفاً منه واحتقاراً له ، أو حفيظة عليه . كل ذلك جائز . إنما الواقع أن مصر كانت تؤمن إيماناً عجيباً بانتصارها على الزمن رمز (العدم) ، بالبعث الدائم

فها هو ذا النيل فى انتظام يحيا ويموت مرة فى كل عام . موت وبعث ، وبعث ثم موت . هكذا دواليك كساقية النيل ذات الجرات الحمراء ! من هذا النيل خرجت أساطير البعث ، وفى هذه الأرض الجميلة الدائمة الخصب نشأت فكرة الخلود وقتال (العدم) تشبهاً بهذه الأرض المحبوبة التى لم تخلق الآلهة جنة سواها ، فهى المرجع

والمآب ، يموتون عليها ويعودون إليها . موت ثم حياة ثم موت . .
وهكذا إلى أبد الآبدين . لا الموت يقنى ولا الحياة تقنى . شأن هذا
النيل في حياته وموته .

تلك فكرة أساسية من أفكار مصر الثابتة . ولدت في العهد
الفرعوني الوثني الأول ، فهل تلاشت مع العهد المسيحي أو مع العهد
الاسلامى ؟ كلا لم تتلاش . ولم تكن مصر تقبل اعتناق المسيحية أو
الاسلام ديناً لها ولم تجد في هذين الدينين فكرة البعث في جوهرها
ولها . ولقد رفضت مصر دين إسرائيل لخلوه من تلك الفكرة التي
لا تعيش مصر بغيرها ، البعث هو نشيد مصر الخالد . . يغنيه النيل في
كل عام . . والنبات والطيور والسماء والشعراء !

— أذن البعث والزمن من أفكار مصر الثابتة التي تصلح وحياتاً
للأدب المصرى الحديث في رأيكم ؟

— بلا شك ، وفكرة أخرى : قوة القلب . بغير قوة
القلب أى قوة الايمان والحب ما كانت مصر تستطيع أن تنشئ
هذا الفن العظيم الذى انتصرت به فعلا على الزمن ولا تزال تنصر به
عليه في كل جيل . وقلب الفنان المصرى الذى نحت تمثال (شيخ
البلد) أو تمثال (نفر تيتى) مازال ينبض بالحياة ، ويمس حياته رواد
متحف اللوفر ومتحف برلين !

— ومصر في عهد المسيح والاسلام ؟

مخارطة توشيه مصر في العهد المسيحي كان فيها أدب قصصى دينى صوفى
 كليم رائع تلمس فيه الشخصية المصرية بأفكارها الثابتة ووسائلها الخاصة
 للعقوب أكثر مما تلمح فيه الطابع الرومانى . ومصر الاسلامية شيدت مساجد
 ضخمة المظهر قوية البنيان بسيطة التفصيل ، لولا أسلوب البناء
 الاسلامى خلقتها معبداً فرعونياً فى عظمة الأثر الذى تحدثه فى النفس .
 ذلك أن فن العمارة الاسلامى يسمو بالزخرف لا بالبناء . والفن
 الفرعونى المعمارى يتفوق بالبناء لا بالزخرف . لهذا السبب كان الفرق
 ملحوظا بين بعض مساجد مصر الشهيرة (قلاوون) و (السلطان
 حسن) الخ ، وبين المساجد الأخرى فى غير مصر ، وكذلك كلما
 استوحى الفنان المصرى تاريخ قلبه وأرضه ، أنتج فنا شخصياً لاصلة
 له بغير هذا القلب وهذه الأرض . وقس على ذلك الشعر والقصص
 الذى ظهر فى مصر الاسلامية مفعما بروح هذه الأرض لا بروح البادية
 أو وحي أمه أخرى . (رتبا من على العروج سر عذرا)
 وما قولكم فى الأسلوب الأدبى الذى يميز مصر ويطبعها بطابع
 خاص ؟

— الأسلوب هو مزاج الفنان وطبيعته ووسيلته الخاصة فى إظهار
 مكنون فكره أو هو الشخص كما قال (بوفون) . هذا صحيح إلى
 حد ما : إن الكاتب إذ يخلو إلى نفسه وقلبه ويترك التصنع والتقليد
 يستطيع أن يهتدى إلى أسلوبه . لكن لا تظن الطريق هيناً : ذلك

الطريق الوعر الطويل بين الإنسان وقلبه ! إن القلب البشري لأعمق من أن يستكشف قراره من أول نظرة ، إن قلب الإنسان بئر سحيقة رسبت فيها تجاوب جنسه وأمته آلاف السنين طبقة فوق طبقة . فعليه إذن أن ينزل طبقات هذه البئر . وهأنذا أعود بك إلى نغمتي الأولى : حتى الأسلوب ينبغي لنا أن نبحث عنه في أرض مصر وقتها على مدى الأزمان . ولقد سيقنا إلى ذلك البحث أهم الغرب مع الأسف . الفن الحديث كله من تصوير ونحت وعمارة انطلق يبحث عن وسائل جديدة للتعبير فوجدها في مصر القديمة : وجد البساطة في التخطيط . وجد طريقة تركيب الأشكال المختلفة على قواعد هندسية (السكوزم) ، وجد وسائل التعبير عن حقائق (الشكل) التي تخفى على العين العادية . وجد أساليب الحركة والاضاءة في التماثيل والأعمدة ممالا نظيره في قوة الأداء وبساطته كل ذلك وجده الغرب وشيد على أساسه فناً جديداً . ونحن نستطيع أن نجد أكثر من ذلك لو بحثنا طويلاً وتأملنا ملياً . إن كنوز قلوبنا العميقة لاقاع لها ، وهي أدنى إلى أيدينا من الغرباء

— وأي أسلوب اخترتموه لاهل الكهف ؟

— لست أعرف . على النقد أن يجيب . إن المؤلف لا يقع في

الخطأ إلا عند ما يحاول الكلام في عمله . إن الانسان لا يستطيع أن يرى ملامحه أو يعصفها إلا بالمرآة ، والنقد هو المرآة .

— وهل ستقدمون أهل الكهف للتمثيل ؟

— إنى لم أكتب هذه القصة للتمثيل ، ولو كان فى مقدورى معالجة
الفكرة فى قصيدة أو فى صورة زينية أو فى قطعة موسيقية لفعلت .
إنما كانت وسيلتى فى إخراج الفكرة هى الحوار . ذلك القالب الذى
أحبه بين قوالب الأدب . ومع ذلك أليست القصة التمثيلية أحيانا
شكلا من أشكال الأدب ، لها كيان مستقل منسق كالقصيدة والصورة
والهيكل الهندسى ، ذات جمال فى التركيب وتناسب فى الفكرة يوحيان
باللذة الفنية لذاتها . إن التمثيل أحيانا إن هو إلا مجرد تفسير وليس
ضرورة أو غاية أو إتماما للقصة التمثيلية . إن مآسى سوفوكل ،
ودرامات كاليداسا الهندى وفاوست تأليف جوته لهى كلها أدب
صراح ، تدخل على النفس بمجرد قراءتها لذة فنية كاملة بغير حاجة
إلى مسرح وممثلين . ولقد أعدت النظر أخيراً فى مأساة (هيبوليت)
لأىروبيد فضلتها على (فيدر) لراسين . مع أن راسين راعى مقتضيات
المسرح فى عهده وحذف (الكورس) . فوجدت أنا الجمال فى هذا
(الكورس) المحذوف ، ووددت لو أستطيع ادخال (الكورس)
فى قصة أكتبها . نعم (الكورس) الآن فى أواخر القرن العشرين
سأعيد اليه اعتباره يوماً . إنما فى لون آخر وبروح أخرى مستمدة
من (كتاب الموتى) ، وأوراق اليردى ^(١) . نعم إن (الكورس)

(١) أرسل إلى « أتيين » ريبوتون « مدير مصلحة الآثار المصرية بحثاً —

الخلفى الذى أسمع همسه الغريب ، وآهاته المنقطعة ، ونوحه المخنوق
ثم هدوءه العميق ، ثم نهوضه وصياحه وإعلانه الانتصارا . . . لهوشى .
بعيد عن المسرح قريب من العبد ، عسير على الكلام تفسيره ،
مستطاع للموسيقى وحدها التعبير عنه .

== خاصا بالمأساة في مصر القديمة ، ضمنه ترجمة دقيقة لأجزاء من حوار أبطال
قصة مقدسه وكلام « الكورس » كما وجد حديثاً في بعض أوراق البردى .
وقد أدهشنى جمال القطعه ، كما أنها قد كشفت للعالم دروتوف ولبعض زملائه
من مشاهير علماء الآثار في العالم عن منبع « المسرح الاغريقى القديم » إذ تبين
أن هذه القطعه التمثيلية تشمل قسمين كلامى وقسم غنائى ، وأنها كانت
تمثل في المواسم الدينية ، فالغناء إذن والكورس والرقص الدينى الذى عزاه إليه
« نيتشه » أصل التراجيديات الاغريقية ، إنما يرجع إلى أصل أقدم منه هو « التراجيديات
المصرية القديمة » .

الثقافة الشرقية

إذا كنت قد أطلت الكلام في روح مصر وتراث مصر ، فما ذلك
عن رغبة في حبس تفكيرنا في حدود قوميه ضيقة . إنما أنا أرمى الى
غاية أبعد وأرحب . إنى أريد تدعيم الثقافة الشرقية كلها ، والعمل
على إنهاضها لتقف إلى جانب الحضارة الغربية قوية غنية . وهذا الغنى
لن يأتى إلا إذا عطا كل بلد من بلاد الشرق فى أول الأمر على نفسه ،
ليستخرج من بطن الأرض التى يحيا عليها كل كنوز ماضيها ، حتى
إذا اجتمع لدى تلك البلاد قدر عظيم من تلك اللآلىء القديمة مجلوة
منزوعاً عنها التراب ، صب ذلك الثراء كله فى معين واحد مشترك ،
وقدم إلى الإنسانية باسم : « الثقافة الشرقية » . على أن الذى يدعو
إلى الأسف والألم أن بعض المفكرين الشرقيين أنفسهم يشكون
ويشككون فى حقيقة وجود « الثقافة الشرقية » . أولئك هم الذين
قد بهرتهم انتصارات « الثقافة الغربية » المسيطرة الآن على العالم ،
فأعنتهم أشعتها الساطعة ، وأقعدتهم وأسجنتهم يسبحون بمجدها
ويفركون أعينهم التى لا ترى شيئاً غير هذا النور الكثير .

ذلك هو العمى ، والعقم ، والكسل . كذلك لا أقدر تلك الفئة
من الشرقيين الذين يظنون أن التحمس للثقافة الشرقية
تدثرن فى أطوار حضارات بالية يصمرون خدودهم

ويصيحون بألفاظ نكرة مضحكة وفخر كاذب. ذلك أيضاً هو العمى ،
والعمى ، والسكل . إنما إنهاض الثقافة الشرقية لا يكون إلا بنهوض
الشرقيين إلى العمل فيبدأون أولاً بالجرى والحقاق بما وصلت إليه
الثقافة الغربية . تلك الثقافة التي أضافت اليوم كثيراً على ما استطاعت
أخذها من الحضارات الأولى .

فثقافة الغرب خصوصاً في العصر الحديث لاتهمل شيئاً أنتجه
العقل البشري في أى عصر من العصور وفي أى بقعة من البقاع :
فالأوربيون قد أفادوا من الفلسفة الهندية والصينية (شو بنهور ونيتشه) ،
وحتى من الثقافة العربية والشعر العربي (جوته وهابني) ولكنهم
طبعوه بطابع فئهم وتفكيرهم . ذلك أن حب المعرفة والاستطلاع
لا يمكن أن يسمح لرجال الفكر الحقيقيين بالاقنناع بلون واحد
أو الوقوف عند حد معلوم . فالأوربيون دائماً يأخذون ما عند غيرهم
من ثروة فكرية ليصبوه في قلوبهم .

فأوربا إذن على ثروتها وغناها الثقافي اليوم لم يخطر ببالها قط
أن تمقاعد عن قطف ثمار أية شجرة أخرى . إن الفكر البشري ليس
له حدود « دولية » إنما هنالك المزاج الخاص والطبيعة الخاصة التي
تكيف تلك الثروة المباحة التي تنهل منها كل ثقافة وكل حضارة
إن الحضارة الأوروبية في الحقيقة لم تخلق بيديها خالقاً كل هذه
القوالب المعروفة في آدابها وفنونها ولا كل هذه النظريات الشائعة في

فلسفتها وعلماها. فان كثيراً من هذه القوائب والنظريات مأخوذة عن الشرق في حاله الأولية ولكن الأوربيين زادوا عليه وأضافوا إليه وأخرجوه مهوراً بامضائهم ومطلباً بشخصيتهم . وهذا في الواقع عمل كل حضارة من الحضارات . ولا نستثنى من ذلك الحضارة الإسلامية نفسها في عصورها الزاهرة فما هي إلا جماع أفكار وثقافات وحضارات أمم مختلفة صيها الإسلام في قلبه وجعل منها لوناً خاصاً .

فالثقافة الشرقية إذن لا يمكن أن تكون اليوم بمعزل عن ثقافة أوربا ولا أن تغمر عينيها عن هذه الثروة الهائلة ، فلنمد أيدينا إذن غير مقيدين بسلاسل التقاليد أو العادات أو العقائد ، فنأخذ كل شيء ، ونهضم كل شيء ، ثم نخرج على روحنا القديم كل في بلده ، فنستخلص الأفكار الشائنة المدفونة ، إذ لا ريب أن كل بلد من بلاد الشرق فيه مناجم للفكر مفعمة متألقة لم تستخرج بعد . فالغرب على نشاطه الفكري ونهمه الذهني لا يستطيع أن يستخرج كل كنوز الشرق مثل الشرق ، إذ لا بد أن تكون معاوله قد ارتطمت بجواجز منيعة من أسرار طبيعية لا تكشفها غير طبيعة الشرق وغرائزه وتجارب حكمته المتراكمة في أعماق نفسه على مدى آلاف السنين .

فاذا تم لنا ذلك ، فإنا نستطيع أن نطبع كل تلك الثروة وكل تلك المادة بطابعنا الخاص ، على نحو ما حدث عندما اختلفت طبائع

الدول الشمالية في أوروبا عن طبائع الدول الجنوبية ، فتفرعت عن الثقافة الواحدة ثقافتان هما الثقافة اللاتينية والثقافة الانجلوسكسونية ثقافتان لا تختلفان من حيث مقدار الثروة الذهنية ، وإنما تختلفان في الطابع والمزاج والروح . فإذا كان في مقدورنا نحن أن نضيف إلى هاتين الثقافتين العظيمتين ثقافة ثالثة لا تختلف عنهما في مبلغ ثروتها ومادتها وإنما تختلفهما فقط في الطابع والطبيعة والروح ، ثقافة ثالثة حية نامية جميلة عليها خاتم شخصيتنا الشرقية ، يراها الغرب فكأنه يرى شيئاً جديداً مستقلاً ، قد أخرج لهم من صدر عبقرية جديدة ، فانتنا نكون قد أدينا رسالتنا إلى هذا العالم ، واهـكـننا أن نساير الفكر البشري في تطوره وأن نساهم بعملائنا ومواهبنا في بناءه العظيم ، وأن نظفر أخيراً باحترام هاتين الثقافتين الحيتين القائمتين ذلك الاحترام الذي تنظر به إحداهما إلى الأخرى . ويسترد (الشرق) عندئذ اعتباره في نظر (الغرب) .

كتلة « الروح الشرقى »

سألنى سائل عن رأيى فى الوحدة العربية. فأحلمته على آرائى السابقة
وقلت له إني لم أغير موقفى . فأنا على الرغم من رغبتى فى تكوين
شخصيات فكرية مختلفة ووحدات سياسية مستقلة لكل أمة من
الأمم العربية والشرقية ، فإني أحب أن نتذكر دائماً أننا إزاء الغرب
لنا صفة واحدة تجمعنا وينبغى أن نحافظ عليها . فأوروبا اليوم عندما
تبين لها خطر الحروب التى تقوض المدينيات ، قد ارتفعت وأرادت أن
تحافظ على مصير ماتسميه (الروح الأوروبى) ، فأقامت من أجل ذلك
المؤتمرات دعى إليها كبار مفكرى الأمم الأوربية ليدرأوا الأخطار
التي تهدد هذا الروح الأوروبى المريض . ونحن الشرقيين لنا من غير
شك كذلك ما نستطيع أن نسميه (الروح الشرقى) إن طابعنا الفكري
وطريقة نظرنا إلى الأشياء ، وتقاليدنا ، وإحساسنا بالجمال الذهنى ،
ومشاعرنا نحو مظاهر الطبيعة المختلفة ، وأسلوبنا فى التعبير عن حقائق
الأشياء ، كل ذلك ينبع عن عقلية خاصة وعبقورية مستقلة لا ينبغى أن
تتحلل وتلتشى تحت طغيان موجة أقوى ! فإذا نادينا بالوحدة العربية
فإنما ذلك لندعم كتلة (الروح الشرقى) أمام كتلة (الروح الغربى) .

احياء الثقافة العربية القديمة

سألتنى مجلة عربية عن هذه المسألة فقلت :

تسألوننى كيف نعمل على إحياء ثقافتنا العربية القديمة ؟ وهل ماتت هذه الثقافة حتى نطلب إحياءها ؟ إن الثقافات والحضارات لا تموت ولكنها تهضم فى ثقافات أخرى وحضارات أخرى . فالثقافة العربية القديمة قد امتصتها واحتوتها الحضارة الأوربية القائمة ضمن الذى امنعت وهضمت . فمادة الثقافة لا تنعدم ولكنها تنحول إلى ثقافة جديدة وتدخل فى تركيب حضارة جديدة ، فالقول بإحياء الثقافة العربية القديمة أو الثقافة الإغريقية القديمة قول لا أستطيع أن أفهم له معنى . فالحضارات إنما تقوم على الحضارات . وهيكल الحضارة القائمة إنما ينهض على طبقات متعددة من حضارات سابقة . فلوفرنا المستحيل وأردنا أن ننزل طبقات ونرجع إلى ثقافة قديمة بعينها وحالتها وكميتها الغيرة ، فماذا نجد فيها غير شىء أولى الى جانب ثقافة العصر الحاضر ! أما إذا كان المقصود من كلمة الاحياء لا إحياء الثقافة القديمة بعينها وحالتها وكميتها إنما المقصود إحياء المجد النابر والمكانه والازدهار الذى لغت الأنظار الى الثقافة العربية القديمة فى عصرها ، فهذا شىء آخر ، وهذا أمر ممكن لو أننا عملنا واجتهدنا فى سبيل إحداث نهضة ثقافية يشعر بهزتها العالم المتحضر . ووسائلنا فى هذا هضم كل ثقافة موجودة

قديمة أو حديثة وإخراج ثقافة جديدة تتم عن روحنا وشخصيتنا الشرقية،
تستطيع أن تقف جنباً إلى جنب مع الثقافتين العظيمةتين الحاضرتين،
اللاتينية والانجلوساكسونية.

أما الوسيلة الفعالة لتوليد ثقافتنا الشرقية الجديدة فإن الطريق إليها
هو الطريق الذي اتبعته كل حضارة من الحضارات المعروفة أدنى به :
« القيام بحركة ترجمة واسعة النطاق » ولا يغنى التلخيص عن الترجمة .
فنحن بازاء نهضة فكرية يجب أن تشيد على دعائم قوية . وكما أن
عصر النهضة الذى تلا القرون الوسطى فى أوربا قام على حركة ترجمة
المؤلفات الإغريقية ، وكما أن نهضة الثقافة العربية القديمة فى عصورها
الزاهرة قامت على حركة ترجمة المؤلفات الهندية والفارسية والإغريقية ،
كذلك نهضة الثقافة العربية الشرقية الحديثة يجب أن تقوم على ترجمة
أهمّات المؤلفات الأوربية المعتمدة فى الفروع المختلفة ، وهذه المؤلفات
من السهل معرفتها . فما من أمة متحضرة وما من لغة حية إلا اتحدت
فى كتب خالدة معينة بالذات لا بد أن تعرف فى لغتها وفى كل لغة حية .
ففى فرع الأدب مثلاً لا نجد اليوم لغة حية ولا أمة متحضرة لم تنقل إلى
لغتها كل أعمال « هوميروس » و « سوفوكل » و « شكسبير » و « مولير »
و « جوته » الخ وفى الفلسفة والعلوم والفنون أسماء كهذه يضيق
بى المقام عن تعدادها هنا . وهى على كل حال معروفة لـ كل
مثقّف . ولكن المهم هو إجماع الرأى فى الشرق العربى الحديث

على القيام بحركة ترجمة عظيمة واسعة . . . ولننفق في هذا السبيل
الاموال ، فان ربحنا سيكون عظيما ، وسنشتري بهذا حياة
لغتنا العربية ، وسنضع بهذا كل أساس نهضتنا الفكرية التي قد
يسجلها التاريخ كنهضة للفكر الشرق لاتقل في أهميتها عن نهضة
الفكر الغربي التي ختمت القرون الوسطى .

أثر أوربا في أدبنا الحديث

سألتني كذلك مجلة شرقية أدبية عن مدى تأثير الأدب الأوربي في أدبنا العربي الحديث ، فقلت :

إن الحضارة لا تبلغ أوجها حتى تبسط جناحيها على العالم المحيط بها فتؤثر في مجرى الأفكار في كل شعب وقارة ، وتغير من طابع الأساليب المختلفة وتطبعها بروحها الخاص الذي جاءت به ، كذلك كانت الحضارة الفرعونية والإغريقية والرومانية والمسيحية والإسلامية الخ . . .

واليوم الحضارة القائمة هي الحضارة الأوربية ، ولعل الحضارة الأوربية أشد الحضارات نفوذاً في الشعوب على اختلاف ألوانها . ولعل هذا يرجع إلى تسخيرها العلم والطبيعة في تيسير سبل المواصلات مما لم يعهده العالم من قبل ، فالسفن البخارية والتطارات السريعة والطائرات والراديو والسينما كلها وسائل عجيبة فعالة في سرعة إذاعة الأفكار الأوربية ونشرها . إن الكرة الأرضية اليوم ليست إلا برقالة في مقلب هذا الدسر الأوربي . ولا مناص لأمة من الأمم أن تجهل أو تتجاهل هذه الحضارة رضى أو كرهت .

لذلك كان من الطبيعي للشرق ولا سيما أمم البحر الأبيض أن تتأثر إلى حد كبير بالحضارة التي تهيمن اليوم لا على البحر الأبيض

وحده بل على كل بحار الأرض. فاقول بأن الأدب العربي الحديث تأثر بالفكر الاوربي هو البديهة بعينها. وينبغي لهذا الأدب أن يتأثر بالحضارة الموجودة الحية إذا أراد أن يحيا وأن ينتشر وأن يفهم ويعترف به في الأرض عامة وفي بلاد هذه الحضارة خاصة. والأدب العربي في كل عصوره القديمة تأثر بالفعل بالحضارات المختلفة، وجرى في شرايينه الدم الفارسي والهندي والرومي.

والقول بأن الأدب العربي الحديث كان أشد تأثراً بأوروبا بعد الحرب هو أيضاً قول يطابق طبيعة الأشياء. فلا اتصال الوثيق بين الشعوب واحتكاك الأفكار والمبادئ وتقدم المواصلات، كل هذا حدث بعد الحرب وبتأثير الحرب على نحو فجائي قوى يشبه الطفرة. ولقد أدرك الأدب العربي من احتكاكه بأوروبا أن وسائل التعبير في الأدب قد تطورت وأن الـ كتاب على اختلاف جنسياتهم قد تواضعوا على أن يلبسوا أفكارهم ثياباً متشابهة في أغلب الممالك المتحضرة كما ألبسوا أبدانهم ثياباً متشابهة هي القبعة والسترة سواء في ذلك الإنجليزى والفرنسى والرومى والإيطالى... الخ. فكان من الطبيعى أيضاً للأدب العربي الحديث أن يتأثر بهذا اللباس الأدبى الشائع كما تأثر الزى الشرقى إلى حد كبير بازى الغربى. على أن الزى أو اللباس شئ والروح أو الشخصية التى فى جوف هذا الزى واللباس شئ آخر. ومهما يكن اتحاد الإنجليزى والإيطالى والأسبانى

والروسي في شكل الزى فان الدم الذى يجرى في شرايين كل منهم
مختلف كل الاختلاف .

لذلك أحب أن أقول لأدباء العربية الحديثة : لا تخشوا مطلقاً من
من إلباس أفكاركم الأنواع الأوروبية على شرط أن يكون طابع هذه
الأفكار وروحها شرقياً محضاً . وأن يحس القارىء الأوربي إزاء أعمالكم
أنه أمام نفس غير نفسه وشخصية غير شخصيته وإن كان الرداء
ليس غريباً عليه لأن الرداء ليس ملكاً لأحد : إنه ملك الحضارة ،
والحضارة وليدة الحضارات التى سبقتها . .

الأدب العربي في الماضي والحاضر

اعتمد الباحثون في الأدب العربي أن ينظروا دائماً إلى الماضي وأن يقصروا عليه كل جهودهم وأن يخصصوه بكل التفاتهم ، زاعمين أنه لا أسلوب في العربية إطلاقاً إلا أسلوب الجاحظ ولا نثر عذب إلا عند ابن المقفع . حتى أدى هذا الزعم إلى حبس النشاط الذهني على آثار الماضي وإلى الاعتقاد بأن مجد الأدب العربي الذي لن يعود إنما كان في الماضي .

أثرت هذه العقائد في تفكير الشرق العربي ، وكانت هي علة الجحود العقلي الذي أصيب به الشرق على مدى أحقاب ، حتى شعر الناس كأن باب الاجتهاد قد أغلق فما عادوا يسمحون لمداركهم أن تتذوق غير الأدب القديم وإن لم يفهموا مراميهم ويشعروا بملاسات حياته ، وما عادوا يسمحون لأدباء جيلهم أن يخرجوا عن دائرة تقليد هذا القديم وإن أحسوا من أنفسهم القدرة على إبداع ما يناسب روح العصر الذي يعيشون هم فيه .

غير أن التحرر الفكري الذي انطلقت نسماته أخيراً على ربوع الشرق قد عدل كثيراً من هذه النظرات ، فنحن اليوم لانحشى أن نبذل تحت وحي الحاضر إنتاجاً يختلف عما أبدع تحت وحي الماضي ،

ولا يخشى الناس أن يتذوقوا ويعجبوا بفتاح الحاضر كما يفعلون
بفتاح الماضي ، ولا نخشى أن نضع الماضي والحاضر في ميزان المقارنة
وميدان البحث. نعم نحن اليوم قد تعلمنا أن نعتبر الأدب العربي شجرة
واحدة نامية نستطيع أن ننقل عيوننا بين جذعها وفرعها وأغصانها
وأمسها ويومها وغدها . . . بل إننا لا نتحرج اليوم من الاعتقاد بأن
مستقبل هذا الأدب قد يكون أبلغ وأزهر من ماضيه على أن الجرأة
في الحكم مازالت تعوزنا .

توضيح: أذكر يوماً جاءني فيه أسنان من أساندة الأزهر فتحدثنا قليلاً
الكلم في الأدب العربي فقلت له إن أساليبنا اليوم في الكتابة خير من
أساليب كتاب العرب الأقدمين من بعض الوجوه . فنظر إلى دهشاً
مفروضاً كأنه لا يصدق أذنه . فأدركت أن قداسة القديم مازالت تنسج على
هذا العقل الجامد خيوط العنكبوت . (كما قال لورنس له عد صبراً لئلا تهرأ)

ولبثت وحدي أفكر في الأمر وأسائل نفسي : ما وجه العجب
في هذا التفضيل . إني من المعجبين بفن الكثير من الأقدمين أمثال
الجاحظ وابن المقفع والكنى مع ذلك لا أستطيع أن أقضي بغير هذا
الحكم ، على أن من التعسف أن تقوم المقارنة على هذا النحو . فنحن
الآن في عصر مختلف كل الاختلاف عن العصور السابقة . حقا إن
إدراكنا اليوم للفن أوسع ولا ريب من إدراك الجاحظ وابن المقفع .
كما أن إدراك اينشتاين للعلم أوسع من إدراك فيثاغورس . هذا لا يمكن

أن يقوم فيه جدال . إنما الأمر الذي يصح أن نجادل فيه هو : أى الآداب وأى الكتاب استطاع أن يملأ عصره وأن يعبر عن روح عصره وأن يؤثر في عصره ؟ إنهم يقارنون أحياناً بين « فولتير » وبين « برناردشو » . فى رأي أن الأخير قد اكتملت لديه من الوسائل الفنية ما لم يتهياً مثله للأول . إن فولتير لم يبلغ قط فى قصصه التمثيلية ما بلغه قصص برناردشو . ولكن أيهما استطاع بكتاباته أن يهز عصره هزاً ، وأن يحدث فى تفكير عصر تيارات قوية وأن يفرض وجوده على العروش والسيجات ، وأن يلقي بذور الانقلابات المقبلة فى نفوس الشعوب ؟ ثم سؤال آخر يجوز فيه الجدل : أى الأدباء ، العربى القديم أو الحديث استطاع فى جملته أن يقف الى جانب الآداب الأخرى المعاصرة ليؤدى معها رسالته إلى البشرية ؟ إن المقارنة بين أدب الأمس فى ذاته وأدب اليوم فى ذاته تؤدى غالباً الى ترجيح أدب اليوم . إنما المقارنة يجب أن تكون بين أدب الأمس فى عصره وأدب اليوم فى عصره . وهنا تختلف النتيجة بعض الاختلاف .

لا أحب مع ذلك أن أصدر أحكاماً سريعة . . فان الحكم يقتضى أسباباً مطولة . وإن المقام ليضيق دون ذلك . إنما أحب فى ختام كلمتى أن ألفت نظر هذا الجيل الى أن يأخذوا الأدب العربى الحديث على سبيل الجد وأن يضعوه موضع الدرس

الى جانب الأدب القديم سوء بسواء . وأن يكثر من المقارنة
بينهما إذا شاءوا كما يقارن الإنسان بين الزهرة والزهرة في
شجرة واحدة . وبين الثمرة والثمرة في اعوام متعاقبة . فان في
ذلك تذكرياً لهم بأن الأدب العربي كائن حي يتطور ويتغير ويتلون
ويتأثر باختلاف الفصول والعصور !

كرامة الفسکر

القوة الحقيقية للقلم هي أن يستطيع أن : « يقول ما يريد وقتما يريد أن يقول » . والرجولة الحقيقية هي أن يبذل المرء دمه وماله وراحته وهنائه ودعته واطمئنانه وأهله وعياله وكل أثر عنده وعزيز عليه في سبيل شيء واحد : « الكرامة » والكرامة الحقيقية هي أن يضع الإنسان نفسه الأخير في كفة ، وفكرته ورأيه في كفة ، حتى إذا ما أرادت الظروف وزن ما في الكفتين رجحت في الحال كفة رأيه وفكره . . . كل عظماء التاريخ كانوا كذلك . بل إن مصر الفقيرة اليوم في العظماء قد عرفت ذات يوم رجالا كثيرين من هذا الطراز . . . رجالا لم يترددوا في تضحية كل شيء من أجل فكرة . . . والنزول عن كل متاع من أجل رأي . . . بمثل هؤلاء الرجال رجحت مصر كثيراً في حياتها المعنوية والفكرية . بل إنني لأبالغ إذا قلت أن الأمم لا تبني ولا تقوم إلا على أكتاف هؤلاء . . . وأن الخطر المخيف هو يوم تخلو أمة من أمثال هؤلاء . . . نعم وانه ليخالجني الآن شيء من القلق ، . . . فناموس اليوم هو وطاء الفكرة بالاقدام ركضاً خلف الجاه الزائف والمال الزائل ، . . . لقد حق لنا جميعاً أن نسأل هذا السؤال : هل يطول غضب الله علينا فلا يظفرنا بهؤلاء العظماء الذين يستطيعون أن يردوا الاعتبار إلى قيمة الرأي ، ويظهروا النفوس من درن المادة ، ويعيدوا

المثل العليا النبيلة إلى مجدها القديم ؟

* *

هذا قول قلته منذ أعوام ، وأقوله اليوم أيضاً . . وأنا واثق أن
في مصر عدداً كبيراً من العقلاء الذين يستطيعون تمحيص المسائل
وبحث المشكلات وإبداء الرأي الذي ينفع البلاد . . ولكنهم
يطوون الرأي في الصدور ، أو يهمسون به في الآذان . . ولا يعرضونه
بجراحة ، أو ينادون به في إيمان خشية أن يتعرضوا لهجوم ، أو يلحق
مصلحتهم ضرر موهوم . . هذا التنجي من الناضجين والا كفء عن
المشاركة في توجيه الرأي العام ، هو الذي يوجد في مجال الآراء
حالة تشبه الحكم المطلق أو الدكتاتورية . . إذ تستبد فكرة واحدة
بمعقول الناس ، ويطنى رأى واحد على تفكير الجماهير . . فتؤمن
دون مناقشة بالقول الغالب ، وتنساق دون وعى بالرأى الجارف . .
فنحن في حقيقة الأمر الذين نفرض بأنفسنا على أنفسنا الحكم المطلق
. . لا دستورنا ، ولا نظام الحكم لدينا . . نظامنا الديمقراطي
لا يمنعنا من الحرية . . ولكننا نحن الذين ننزل عنها راضين ،
لأننا لا نريد أن ندافع عنها أو ندفع ثمنها . . إننا نفضل دائماً أن نقبل
رأى غيرنا الذي لا تؤمن به ، على أن ندفع في سبيل رأينا بعض
الجهل أو بعض الغرم . . ما من نظام في الوجود يكفل الحرية

لإنسان يخشى أو يكسل أو يهمل في إبداء رأيه الحر . . .

* *

إذا أردتم الحرية والكرامة الآدمية فاحضوا كل رأى بمقوالكم ،
ولا تقبلوا جزافاً وبغير تفكير آراء غيركم ، حتى ولو كان أصدق
أصدقائكم . . .

إن السكاب على مروه ته محتر ، لا شيء إلا لأنه قبل بلاصعوبة
أن يضع أصدقائه في عنقه قيدا وإن كان من ذهب . . .

كلمة "مروه" صفة لـ تليق بالكيانه لا هي ص
صفات لـ . . . وكما انوار بنر صفا
الكلمه ان سبب لها بكمه (وصفا) فان
اكثر صلاصه مرئيه فانها لـ

من النيل الى السين — ١

قرأت رسالتك إلى على وجه « الأهرام » ذلك الوسيط الصادق بيني وبينك والرسول الأمين بيننا وبين الناس، نحمله ماشئنا وما شاءت أفتد تمنان آمال وأحلام ، بل هو ذلك الحمام الزاجل لهذا العصر نطلقه بين ضفتي نهرين ونافذتي قارتين

إنني أكتب إليك الآن هذا الرد وأنا أطل على النيل ، وقد اتخذ لون الفضة في هذا الشتاء ، وأنخيلك الآن واقفاً تنظر إلى السين في لونه الفيروزي الصافي ، ماشياً الهويني تتصفح بين آن وآن الكتب القديمة المعروضة فرق حاجز النهر كما كان يفعل صديقك أناتول فرانس . نعم إنك تثير في نفسي ذكريات . رسالتك قد أعادتني إلى ذلك الماضي . يوم كنت أقطع كل صباح ذلك الطريق بين كاتدرائية فوتردام حتى جسر « دورسميه » في الضفة الشرقية ، لأترك كتاباً حتى أتصفحه ، كان نصف تحصيلي العلم في أول أمرى من تصفح الكتب خلصة بغير مقابل ، النقط من كل كتاب فكرة أو فكرتين كالصفيحة ينقط من كل سنبل حبة أو حبتين ، وأنحاشي أن تراني بين البائع المسكين وهو أيضاً فنان في أغلب الأحيان يهيمه اقتناء النادر من المجلدات ويزهو بعرضها أكثر مما يهيمه أمر بيعها . ولقد أضحككتني ذات مرة عبارة بارعة في كتاب مشهور كنت أتصفحه فباغتني

لفطرة البائع فحجبت أن أطرح الكتاب بعد ذلك ، فاضطرت إلى شرائه بالمال الذي ادخرته لغدائي .

نعم لقد كنا هناك نجمع أعقاب العلم من كل مكان كما يجمع في مصر الغلمان أعقاب السجائر ، إلى أن اتسعت أذهاننا بالمران فصرنا نلتهم الأسفار التهاماً .

إن باريس عندنا لم تكن قط امرأة ، إنما كانت كتاباً مفتوحاً هو « سفر الحياة العليا » .

أما هنا . . فالنيل جميل حقاً ، لست أنكر ذلك ، وإنى لأرى الآن طرف (الجزيرة) الممتد في الماء كأنه مقدم سفينة ، وأبصر فيها النخيل والأشجار خضراء داكنة كأنها ليل شعري يخفي تحت ستره المحبين ، ولـكني لأرى على ضفتي هذا النهر الرحيب العظيم غير قصور صغيرة متناثرة بيضاء وصفراء وخضراء كأنها بعض طيور الماء ، جمال طبيعي لا ريب فيه ، ولـكنك لا ترى فيه بعد يد الحضارة الدشظة ، فلا حواجز ممتدة ولا تماثيل منصوبة ، ولا كتب معروضة .

أعترف لك أنني لأقرأ في مصر كثيراً ، وهل في مصر بعد شيء يدفع إلى القراءة ؟ إن مصر ليست كتاباً مفتوحاً ، إنما هي هيكل قديم مغلق يحوى كنوزاً ، قد ضاع مفتاحه فعلينا قبل كل شيء أن نفتح باباً ، ونستخرج مافيه ، ليس من الخير أن نظل طول الزمن نتغنى بمفاخر هذا الهيكل ونحن نؤمن على أعتابه ، ولـكن المصلحة كلها

في أن نذكر أنفسنا دائماً بما فينا من كسل ونقص وخمول وأن نهيب على أقدامنا للعمل .

وعلى ذكر العمل أريد أن أسألك سؤالا :

أما زال المقيم في باريس يحس هذا الجو المعنوي المشبع بالنشاط الذي يغري بالعمل المتواصل دون كلال ؟ لعل أهل مصر لا يعرفون هذا الجو ، وإنك لتستطيع أن تخدم بلادك لو وصفته لنا فيما تصف ، هذا الجو الذي ينتشر في كل مكان . في القهوة حيث ترى الجالسين إما يكتبون وإما يقرأون وإما يتحدثون حديثا خافيا سريعا كله عزم ثم يتناولون قهوتهم السوداء في جرعة أو جرعتين ويخرجون قافزين إلى الأتوبيس أو هابطين إلى المترو السفلى لينصرفوا إلى العمل ، فلا جلوس مستديم في غير طائل كما نفعل في مقاهينا نحملق بأبصارنا في الرأخين والغادين ، ولا قهوة عالية نصخب بها ونحن ننفخ دخان الشيشة ولا مناقشات مدوية في العلاوة والترقية ، ولا صيحات العريضة ولا ضوضاء النرد .

نعم . أو ليست تلك كل حياة الملايين من المصريين في أوقات فراغهم بعد عمل قليل لكسب اللقمة ؟ فهم بالقياس إلى ما تراه الآن حولك في باريس لا يمكن أن تسمى حياة . فالحياة هي العمل واللهو ، ونحن لا نعرف حتى كيف نلهو لأننا لا نعرف كيف نعمل ، ولعل مصيبة العاملين في مصر وهم ندرة أنهم لا يعرفون أين ولا كيف يلهون

بعد نهار شاق ممتلئ بالانتاج ، فلا أوبريت فنية مصرية ، ولا مسارح تلتقي فيها شמוש الهيئة الاجتماعية ، ولا صالونات لنساء عظيمات تتقابل فيها أساطين البلاد ، ولا أندية ليلة راقية يعرض فيها ظرفاء الأدب والشعر والفن كلماتهم اللامعة ونكاتهم الباردة وأخبارهم ونواديرهم وأغانيهم . لا شيء في ليالينا المصرية يمكن أن ينم عن الروح المصري والذوق المصري ، بينما كل شيء في الليالي الباريسية يدل على الروح الباريسي والذوق الباريسي .

إن الحياة بمعناها الرحب العظيم لم تدب بعد في وادي النيل ، إنما تلك الحياة الصغرى التي لا تخرج عن شؤون الأكل والشرب والمتعة الوضيعة هي وحدها المعروفة الآن .

وبعد ، فاني أرجو لك إقامة طيبة في محيط تلك الحياة الحقيقية التي أنت فيها الساعة ، وأرجو منك أن تحرص على كل دقيقة من دقائقها وأن تروى ظمأك بحسنها العلوى وتشبع نفسك بجهاها الروحي . وهنيئاً لك .

من رسالة إلى أحمد الصاوي محمد في عام ١٩٢٧ .

من النيل إلى السين — ٢

جاء في آخر رسالتك الماضية ذكر للأكل والشرب . وقلت بحق إننا حتى في هذا أيضا لم نبلغ شأن الأمم المتمدينة ، صدقت والله صدقت . إن الحضارة . كل شئ فيها موضوع تفنن وابتكار . إن الرجل المتحضر هو الذي يعرف كيف يعمل وكيف يأكل يلهو وكيف . وما من أدب من الآداب العريقة إلا وفيه فصل عن الطعام ، فإذا فتحت « العقد الفريد » لابن عبد ربه أو « مقامات بديع الزمان » وجدت أوصافاً تسيل اللعاب في ألوان « السكباجة » و « الطهباجة » وإذا راجعت كتاب « بول ريبو » الأديب الفرنسي عن فن الأكل لوجدت فيه هذه العبارة الطريفة : « إن استكشاف لون جديد من ألوان الطعام لأنفع للإنسانية من استكشاف نجم جديد من نجوم السماء » وإنك لتعلم فيما تعلم عني أني أحب الجيد من الطعام ، وإنني كثير التبديل والتغيير للطهارة فبحق عندك إلا أكلت لي وباسمي ثلاً : أزواج من « المحار البرتقالي الأخضر » وطبقاً من « الكاسولي » التولوزية التي أحبها ؟ ولا أوصيك بحساء البصل فأنت أدري مني أين تجده وتطلبه . وبعد ! أما وقد فرغنا من أمر بطوننا فلنتجه إلى شئون عقولنا . لقد رافقني حقاً وصفك للضراب العام في باريس وقولك إن تعطيل طرق المواصلات من ترام ومترو وأتوبيس في بلد

كباريس لم يعطل لحظة نشاط الباريسيين . هذا صحيح إن ضرب باريس نفسها بمدافع الألمان أيام الحرب لم يؤثر لحظة في حياتها العقلية والذهنية والاجتماعية . فقد كان رجال العلم في معاملهم وقاعات بحوثهم هم ، ينظرون إلى عالمهم اللانهائي من خلال الميكروسكوب والتلسكوب ورجال الأدب هم هم يستقبلون تحت قباب الجامعات الأدبية زملاءهم بذلك النثر الذي سيدبقى على التاريخ . ورجال الفن هم هم يعرضون فنائهم ابتكارهم واتجاهات مذاهبهم في المعارض والصالونات ، والمسارح هي هي تعج بالمشاهدين والناقدين . وأندية الليل هي هي بظرفها وشعرها وخفة روحها .

أما في مصر ، فكل هذا غير معروف . فانه ليكنفي أن تنشر جريدة في صفحتها الأولى أو التاسعة خبراً سياسياً هاماً حتى تجد مصر كلها من أقصاها إلى أقصاها لا تتكلم إلا في هذا الخبر ولا تلتفت إلا بتريده هذا الخبر ، السبب في ذلك بسيط : إن حياتنا فوضى ، أو هي حياة أولية « سديمية » لم تتكون فيها عوالم منظمة متآلفة يعيش فيها الناس . فانك لا تستطيع مثلاً أن تقول في مصر « عالم الأدب » و « عالم العلم » و « عالم الرياضة » و « عالم الفن » و « عالم السياسة » الخ الخ بالمعنى المفهوم لهذه العوالم في أوروبا . فان كل طائفة من هذه الطوائف عندنا لم تستطع حتى الآن أن تنظم نفسها تنظيماً يؤهلها لخصر جهودها المنتجة في منطقة معينة بالذات . وقد نشأ عن ذلك أن الطائفة التي في يدها القوة واللقمة وهم

رجال السياسة ، قد برز عالمهم كالشمس فطغى على الآخرين ، ومحى من الوجود تلك العوامل الأخرى النافعة التي كان ينبغي ألا تقل عنها إشراقاً . فنحن إذن لا نعيش كما تعيش الأمم الكبرى ، ومجتمعنا على وضعه الحاضر مجتمع ابتدائي . فإلى أن يهتم الناس بأشياء أخرى غير السياسة وأرقى من السياسة ، وكل شيء في الوجود هو في الحقيقة أرقى من السياسة إلى أن يعنى الناس بشؤون الفكر ولذات الفكر وينفقون في الكتب والمتاحف والمعارض وقاعات المحاضرات بعض اللحظات . إلى أن يكون لرجل العلم ورجل الأدب ورجل الفن في مجتمعنا عين الإحترام والاهتمام الذي يقابل به رجل السياسة ، إلى أن تكون المظاهرات الأدبية والعلمية عين الهزة : والضجة التي تكون المظاهرات السياسية إلى أن نترك هؤلاء البضعة القليلة من السياسيين المحترفين يصيحون ويصخبون في نواديهم ! . وننصرف نحن المفكرين إلى نواديها ومجامعنا الفكرية ونحن الرياضيين إلى نواديها الرياضية ونحن الماليين والاقتصاديين إلى نواديها المالية والتجارية . إلى أن تتعدد نواحي النشاط في البلد . وينهب هذا النوم والحمول الذي شمل كل جانب إلا ذلك الجانب العقيم : السياسة . إلى أن يحدث كل هذا فلا أمل في المجتمع المصري . فلندع الله أن يتدارك هذه الأمة برحمته فهو مغير الأحوال والسلام !!

من مشكلات الفكر

أثارت صحيفة الإنجليزية مشكلة ليست يسيرة الحل . . . وهي فيما يبدو من الظواهر الشائعة اليوم في كثير من الأمم . . . تلك هي مشكلة الأدباء والمؤلفين وموارد رزقهم . . . فاقدم كادت تنقرض الآن اسطورة المؤلف الثرى . . . ذلك أن أزمة الورق في إنجلترا ومشاكل النقد وقيود الاستيراد الدولية انقصت الى حد كبير عدد المطبوع من الكتاب ، فلم يعد ربحه يكفي لاطعام المؤلف . . . وليس كل مؤلف يستطيع فوق ذلك أن يضمن لكتابه للنشر ، حتى وان كان من المجيدين أو المعروفين . . . فان للناشرين حصص محدودة من الورق ، وعلى كل منهم ان يعد قائمة بمؤلفيه ، ويعين لكل نوبته في اسبقية الطبع . . . أمام كل هذه العقبات ماذا يصنع المؤلف لينتج ويعيش ؟ . . . استطلعت الصحيفة آراء طائفة من الأدباء . . . فأجمعوا رأيهم على أن تأليف الكتب لم يعد يضمن رزقا لمؤلف . . . وان على الاديب أن يتخذ له حرفة من الحرف أو وظيفة من الوظائف أو عملا باحدى الصحف . . .

إنها حقا لمحنة أن يعجز الفكر العرف عن أن يكفل لصاحبه حياة مستقلة في هذا العصر . . . ولكن ما هو الحل ؟ . . .

في فرنسا تكفلت الحكومة عقب الحرب الاخيرة بشراء بعض مقالات الادباء ، لتقيهم شر الموت جوعا وجعلت توزع هذه المقالات

على الصحف ، داخل بلادها وخارجها قاصدة من وراء ذلك الى نشر
الدعاية للثقافة الفرنسية . . ولكن هذا ليس بالحل الطبيعي الذي
تلقا اليه حكومة في كل حين . .

أما في بلادنا فالمشكلة قائمة على أشدها . . فالحكومة أبعد من
أن تعنى بتأليف أو مؤلفين . . ومع أن عدد الأدباء المنقطعين لحرفة
القلم قليل . . إلا أنهم قد تركوا المصائرهم يدبرون لأنفسهم أمر معاشهم .
ولما كانوا لا يحسنون عملا غير حمل القلم . . فقد احترقوا الكتب
على كره منهم . .

تري ماذا يحدث لو اتفقت اليهم الحكومة قائلة : « يجب ان
تنقطعوا للفكر الصرف كل الانقطاع . . أما معاشكم فاني
سأدبره لكم . . . »

إذا فعلت الحكومة ذلك ثم اقتضت من الأدباء بعدئذ الثمن . .
وارادت تسخيرهم في خدمة أهدافها السياسية أو أهوائها الحزبية . .
فان الحال تنقلب شرا مما كان . . . ولخير الأديب أن يموت جوعا من
أن يبيع روحه لشيطان السلطان . . . ولكن . . لنفرض أنه وجدت
الحكومة التي تترفع عن هذا الصغار . . ولنفرض أيضا أكثر من
ذلك أنها تورعت عن التدخل في إنتاج الأديب وأنها جردت
من سلطانها حارسا يحمي حرية الأديب في التفكير والابداع . .
لنفرض أن هذه الحكومة أو (العنقاء) يمكن أن

توجد . فماذا يكون الحال ؟ ..

ما من شك الأدباء سيتوفرون على الفكر الخالص وحده . .
وسيكرسون جهودهم لخدمة الفن الرفيع ، بعيدا عن كل اعتبار . .
وسيحلقون في أدبهم وفنهم وتفكيرهم تحليقا . . قل من يتابعهم فيه
أو يلاحقهم في التصعيد الى قممه .

إنه الفكر المستكن في بذاته قد أمتطى صهوة السحب . . ليشرف
من سمائه على جموع الناس . . .

* * *

على هذا الوضع يخيل إلينا أن المسألة قد حلت . . . ولكن
صوتا من أعماق الجموع يرتفع قائلا : أنسيتم أنكم في عصر (الجماعات)
البشرية المتنيقظة التي أصبحت لها حقوق في كل زاد مادي ومعنوي ؟ !
بأي حق تجلسون عنها هؤلاء الأدباء في تلك الاقفاص المرتفعة . .
وتدثرونهم بهذه السحب القصية ؟ ! لماذا تحرموننا نحن الشعب من
هذا الاتصال المباشر بهذه العقول الممتازة ؟ ! نحن الناس في جموعها والوفها
لا تصل أيدينا الفارغة الفقيرة الا إلى الصحف السيارة والمجلات
المنتشرة . . أتريدون أن نقرأ فيها الفارغ الفقير من الكلام في
في كل الاحوال . . أليس من حقنا أن نلقى فيها أدبيا من
هؤلاء الأدباء الذين تريدون أن تجلوهم وقفنا على الخاصة ؟ ! إلى
منى هذه النظرة الارستقراطية القديمة إلينا ؟ ! أن العالم قد تغير . .

وأن الأديب الذى ينكرنا . . ويأبى أن ينفعنا وأن يمد يده إلينا . .
 ولو فى أعماق طيننا وفى حماة وحملنا وفى وصمة جهلنا . . هو أديب
 مترف بغيض . بل هو كمدعى النبوة المترفع الكاذب الذى يخشى على
 ثيابه أن تدنسها أوساخ الطريق . . وعلى ممعته أن تلعن خطايا
 الفجرة . . فلا يهبط من مقصورته العالية لينتشل من الجماهير ولو نسمة
 واحدة صالحة للهداية أو الرقى ! . . »



بين هذين الصورتين ماذا يصنع الأديب ؟ . . وإلى أيهما يتجه ؟
 إلى الفن الخالص الذى يناديه من أعلى . أو إلى الجموع العطشى التى
 تناديه من أسفل ؟ ! أو يظل معلقا كالقرد . . يد فى العلو ويد فى
 السفلى ؟ ! . .

مشكلة أخرى لا بد لها من حل ! .

بين جيلين !

جاءني ذات صباح أديب شاب . . وقدم إلى رواية مصرية ألفها
ولشرها في كتاب . . وهو مزهو فخور منتعش ، كشجرة اتت ثمارها
فحملت كتابه في يدي بعناية وحنان . . أقرأ العنوان . . ثم شرعت
أقلب بعض الصفحات . . وإذا حركة بالباب تبلغ أذني . . فرفعت
عيني . . فوجدت فتاة لطيفة المظهر أنيقة الملبس . . مشرقة الوجه . .
وضاحة الجبين . . تستأذن وتدخل وتجلس . . قبل أن تمنحني وقتا
لرد أو جواب . . ولم تنتظر مني كلاما . . فقد انطلقت هي تقول بلسان
فصيح وجنان ثابت :

— إني قارئه ساخطة ثائرة . . جئت أوجه إليك سؤالاً واحدا .
ماذا تصنع الآن ؟ . . مضى العام تلو العام دون أن يظهر لك كتاب
في السوق . . أهى الصحافة التي شغلتك ؟ . .
وأشارت بيدها إلى جو الحياة الصاخبة الذي يحيط بمكتبتي . .

* * *

والتفت إليها لأجيب . . ولكن الشاب سبقني صأها بحماسة :
— أمن الضروري أن يؤلف هو وينشر ؟ . . أليس في الدنيا
كتب أخرى جديدة بالقراءة تظهر في كل حين ؟ . .
فنظرت إليه الفتاة دهشة . . ثم نقلت بصرها إلى كالمسألة . .

فوجدتني أهرز رأسي موافقا مصادقا مؤمناً . . فعادت إلى الشاب قائلة :
— إنى أسأله هو عما . . يشغله ؟ !

فقال الشاب بقوة وتدفق :

— ما لنا وماله ! فليشغل نفسه بأى شيء . . خيراً من أن يملأ
مائتين أو ثلاثمائة صفحة يحملها قصة يتقدم بها في كل موسم . . حتى
يقال أنه دائم على الانتاج . . ما كان أسهل عليه أن يكرر نفسه . .
ويخرج حلقات لا تنتهى على نمط « عودة الروح » أو « عصفور من
الشرق » أو « الرباط المقدس » أو المسرحيات الاجتماعية والذهنية
أو يستغل على الأقل كتب التاريخ ، يستخرج منها قصصاً لا تنفذ
وينشر في كل موسم مائتين ويضاء أمثالك . لمجرد النشر أو الكسب
أو إثبات الوجود أو إظهار النشاط . . !

— أترأه يستنكف من فعل ذلك ؟ . ألا يرى له جدوى ؟ !
— اطرحى عليه هذا السؤال . . ها هو ذا أمامك ؟ !

* * *

فالتفت إلى الفتاة لحظة . . ثم انصرفت عني يائسة إلى الشاب .
— إنه يهرز رأسه دائماً . . أجب أنت .

— ولماذا أجيب عنه ؟ . . ولماذا تصرين على الكلام في شأنه
إذا أردت فاني أحدثك عن نفسي . . فأنا ولا شك ملم بكل تفاصيلها
وأنا أديب ومؤلف وروائي و . .

— عجباً .. ولست أدري لم أجدني لأتحدث إليك !
 — هذا خطأ منك .. أيتها الأنسة .. لو كنت في مكانك
 لسألتك عما يكون هذا الشاب الموهوب الذي تدخل في الحديث
 بهذه الشجاعة .. وطلبت أن يقدم إلي .. وأن يتحدثني عن كتابه
 الذي ظهر حديثاً .. لأطمئن على أن الأدب بخير .. سواء ألفت
 صاحب هذه الحجرة أو لم يؤلف .. ونشر كتباً أو لم ينشر .. وعاش
 أو لم يعيش ..

— أنها حقاً لشجاعة .. بل جرأة .. أنك تتدخل على نحو ..
 — لا تنظري إلى « صاحب الحجرة » .. إنه لن ينفذك مني
 ولن يتكلم .. ولن يبت برأى .. إنه كما ترين يحبك دائماً بهز
 رأسه ! ..

— هذا صحيح .. وأنت هل تعرفه منذ زمن طويل ؟
 — أعرفه منذ خمس عشرة سنة .. كنت يومئذ في الخامسة
 عشرة ، وكان أهلي في البيت يتحدثون عن « عردة الروح » ولست
 لم أحفل بقراءتها شخصياً إلا عند ما بلغت العشرين .. في ذلك
 الوقت نشأت مع كثيرين من أقراني في الجامعة وشباب جيلي وشبيت
 معهم وهم يغفلون ويتناقشون في الرواية المصرية الطويلة التي شق
 طريقها .. ويقسمون بحماسة الصبا أنهم سوف يمضون في هذا السبيل
 ويخرجون يوماً روايات مثلها وخيراً منها عن حياتنا القومية وقد بر

بعضهم بوعده ونشر قصصا على جانب كبير من الطرافة والاتقان ..
 واستطيع أن أوكد لك أيتها الأنسة .. أنى أحد هؤلاء النابغين ..
 أقولها لك بكل صراحة .. وبكل تواضع ..

— إنى متأكدة من صراحتك وتواضعك .. وعلى الرغم من كل
 شيء .. ثقتى بدأت أهتم بأعمالك .. ولكن .. ألا تسمح لى قبل
 ذلك أن أعرف شيئا قليلا عن الأمر الذى جئت اليوم من أجله؟
 — تفضلى .. ماذا تريدان أن تعرفى؟ ..

— السؤال بالطبع ليس موجهًا إليك .. أردت أن أعرف كيف
 يترك فنه العالى لينزل إلى الكتابة فى الصحف؟

— والله لقد حيرتموه! .. إذا ارتفع بفنه قلمك كيف لا يهبط إلى
 الناس: يشعر بشعورهم ويدرس أحوالهم ويعرف أنباءهم ويعرض شكواهم
 ويدافع عن حقوقهم .. فإذا فعل .. عدتم فقلتم أين العزلة التى يكتب
 فيها لطائفة من الخاصة .. نصيحتى لك أيتها الأنسة أن لا تاتق هذه
 الاسئلة السخيفة .. لا تؤاخذينى .. ان من يكتب لمئات الألوف
 ويستطيع أن ينفعهم بعض النفع ويرفع بهم بعض الارتفاع لهورجل يؤدى
 خدمة عامة ..

— وفنه؟!

— ما من فنان يستطيع أن يهمل فنه وإن أراد .. ولعلك
 تخططين بين الفن وبين إنتاج الكتب فى كل موسم! تخططين بين

الفنان والمعلم وبين المنتج والتاجر ! .. ماذا تسمين ذلك الذي يسكت
عند ما ينبغي له السكوت .. عامين أو ثلاثة أو خمسة أو عشرة ..
يدرس خلالها نفسه من جديد ، ويرن تأملاته ، ويختزن تجاربه ..
ويراقب أحوال الناس وتطورات المجتمع .. ويراجع أعمالنا القديمة ..
ويبحث ، صامتاً صابراً ، عن طرائق للتعبير الفني جديدة .. ان النشر
يا آنسى سهل .. ولكن الصعب هو البحث الطويل في الظلام !
لعلك تجدينه الساعة مشغولاً بالبحث عن نوع من الفن لا علاقة له
بكل ما عالج من قبل .. « الفن طويل والحياة قصيرة » ! تلك كلمة
« جوته » المشهورة ..

ان من يريد أن يمسك بتلابيب « الفن » .. في حياته المحدودة
يجب أن يقفز فوق كل تكرار لا غناء فيه . وأن يركض خلف سرابه
في كل طريق حتى القبر ..



وسكت الفتى . ونظر إلى كأنه يسألني : هل أصبت ؟ فتلقى
منى الجواب هزة من الرأس أيضاً .. أما الفتاة فقد أكبرت كلام
الشاب الأديب وقالت :

— اسمح لي أن أبدى إعجابي بفهمك للفن .. وأن أسألك عن
كتابك .. فاني مشوقة إلى قراءته .. في أي المكتبات أجده ؟
— آسف كل الأسف يا آنسة إنني لم أجد هنا إلا بنسخة

واحدة . . ولكن إذا أذنت فاني أرافقك الآن إلى أقرب مكتبة . .
وأقدم لك نسخة ممضاة . . الديك ما يبقيك هنا الساعة ١٩ .

لا داعى لبقائى . . نستطيع أن نذهب توأ . .

ونَهَضت في الحال وحيثنى تحية سريعة . . وانصرفت . . ونَهَض
الشاب لينصرف في أثرها بعد أن حياني هو الآخر تحية سريعة . .
ولم يكده يبلغ العتبة حتى بداله رأى . . فبادر أدراجه إلى واقتراب
منى هامساً راجياً .

-- المكتبات الآن مغلقة . . أكون شاكراً لو تفضلت ورددت
إلى هذه النسخة لأهديها إليها . . أما أنت فساأحضر لك نسختك
غداً . . إن المستقبل أولى من الماضي ! . .

فما تمالك أن مددت يدي إليه بالنسخة . . وأنا أغدزله بعيني
راضياً بامهما :

— صدقت ! وإنى لأراه مستقبلاً مشرق الوجه وضاح الجبين ! .

في الستيا والاجتماع

هستريا السياسة

أتسمع هذه الضوضاء التي ارتفع صداها إلى أبراجنا العاجية
فأفسدت علينا هدوءنا وتفكيرنا . لعلك قائل معي هي « هستريا
السياسة » أصيب بها هذا البلد دفعة واحدة . نعم . الأمر لا شك
خطير ما دام قد استطاع أن يصل خبره إلينا فيؤثر في أعصابنا
وإنتاجنا نحن المعتمدين في أبراج الفكر الهادي . وإذا وصل
بخار « السياسة » إلى تلك القمم الباردة في أمة من الأمم فأنذر
إذن بالويل وتنبأ بأن رأس الأمة قد لعب به الداء . . . فما رأس
الأمة في حقيقة الأمر إلا مفكروها المجردون . وإنك لتذكر
ما كان من أمر « جوته » شاعر الألمان يوم زلزلت الدنيا بثورة
يوليو الفرنسية ! فقد دخل عليه صديقه الأديب « اكرامان »
يزوره ويتحدث إليه ، فبادره جوته صائحاً : « لقد أرسل البركان
حممه واشتعلت النار في كل شيء » فقال اكرامان : « نعم إنه
حدث جليل هذه الثورة الفرنسية » فعجب جوته وقال ساخراً :
« كلا . لست أعني تلك الثورة إنما أتكلم عن تلك المساجلة العلمية

التي نشبت في موضوع « أصل الأنواع » بين العالمين « كوفيه » و « جفرى سانت هيلير » تحت قبة المجمع العلمي .

هنا أيها الصديق كل مجد ألمانيا في الماضي بل كل مجد البشرية العليا . إن رعد الثورة وصياح الثوار لم يبلغ صداه أبراج العلم وقم الفكر . هذا الرأس قد ظل ثابتاً ، لم تلعب به « السياسة » ، هادئاً لا يتأثر بانقلاب أو فتح أو حرب إلا ما وقع في ميدان العلم والفكر . ولقد انطفأ فعلاهب الثورة الفرنسية ومضى بدخانه ورماد أشلائه وبقي رأس « جوته » شاخاً مضيقاً في عليائه ، رمزاً للفكر الإنساني الخالد .

ينبغي أن نتدبر قليلاً هذا البلاء ، خوفاً على رؤوسنا أن يصيبها دوار « السياسة » فلا تبصر شيئاً في هذا الضباب الشامل ، وخشية على الناس أن يتمكن منهم الداء ، فيذهب بالبابهم ويدفعهم إلى القتال والتناحر ويغري الشبان منهم باقتراف الإثم وارتكاب الجريمة ، ويشغل المنتجين منهم عن الإنتاج ويصرف الأمة قاطبة عن العمل المفيد ويوقف تلك النهضة التي كادت تعود إلى هجمة مضطربة تحت أقدام كابوس .

إننا لا نستطيع أن نصيح في الناس ، وإذا صحننا من هذا العلو فما صيحاتنا إلا همسات تمر فوق بحر من العراك

والصياح والهتاف تعج به وتصخب أمة بأسرها ، هل لك
في أن تنادى معي من برجك : أيها الناس اتركوا السياسة
للساسة ، فانهم ليسوا في حاجة إلى حناجركم ولكنهم في
حاجة إلى هدوءكم وانصرفكم إلى أعمالكم !

من مقالات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

جموح الديموقراطية

ما تقول هو الواقع . إن تفشى المادية وجموح الديموقراطية لمن
أظهر الأمراض الاجتماعية اليوم . ولعل الأولى نتيجة الثانية . فقد
فهمت الديموقراطية فهما غريبا . فهي اليوم مطية ذلول لمن يريد سرعة
الوصول . ولقد تزاحم الناس فعلا على ركوبها فجمحت بهم وانطلقت
تهدم الأخلاق وتحطم المثل العليا . إنك لن تجد اليوم كثيرا من
طراز أولئك الرجال الذين عاشوا متعففين لامطمع لهم غير تلمية نداء
الحق والواجب في صوت جهير وخلوص ضمير . لقد مضى ذلك الزمن
الذي كان يجلس فيه العالم قابعا في أطماره يلقي الحكمة على سامعيه ويجري
عليه الخير ليعيش ، ثم يموت ولم تعرف يده ثقل الجنيئات . فقد
كفها أن عرفت ثقل القبلات يضعها عليها رجال الحكم والسلاطان .
مضى ذلك الزمن الذي كنا نرى فيه الجاه والمال عاجزين عن انتزاع
الطبيب من واجبه الانساني ، والقاضي من عدله المنزه ورجل الفقه
من فتاواه المجردة ، والأستاذ من بين تلاميذه ودرسه ورجل الدين من
بين تابعيه وزهده . الآن نستطيع بترقية أو بملادة لا تمدو جنيئات
أن نلعب بلب أكثر هؤلاء وأن نصرفهم عن ميادين نشاطهم الطبيعي
وأن نفرهم بمناصب لا صلة لها بعملهم ولا بفضلهم ، وهذا ما يحدث
كل يوم فقد ماتت المثل العليا . وهذا ما أقفر دور العلم والفكر ودور

الدين والزهد ودور العدل والفقه ودور الفن والأدب من أربابها وزج بهم إلى التطاحن والتسابق في ميادين المادة والوصول . هنا أيها الصديق كل الخطر فأن تفشى المادية والوصولية في جسم الأمة لا يخيفني بقدر ما يخيفني دنو الداء من رأس الأمة ، أى خاصتها وقادة الرأي فيها ، إن هذا الرأس هو المحتاج الآن إلى العلاج . ولكن كيف؟ ما هي تلك العملية الجراحية التي تخرج من هذا الرأس صديد المادية وتطهره بماء القناعة والروحانية؟ كيف نستطيع أن نذكر الناس اليوم أن أقوى إمبراطورية على الأرض وقفت ذات يوم وخلفها أساطيل البحر والجو مكتوفة اليدين حائرة أمام رجل هندي خلفه عنزة ثق أن في الامكان صنع الأعاجيب لو استطعنا أن نعيد إلى الخاصة حسن ظنهم (بالأخلاق) وصدق تقديرهم (المثل العليا) . ينبغي أن يؤمن الناس بألا أحد أعظم ولا أقوى من الرجل الذي لا يشتري بمال ولا بجاه ، نعم إن من ملك قلباً حاراً ولساناً حراً ولم يكن له في زينة الحياة مطعم فهو وحده الذي يستطيع أن يسود العالم . ألا ترى معي أن (المثل العليا) المخطمة في حاجة إلى أن توضع من جديد شاحخة فوق عروشها الرخامية الجميلة !!

الإيمان بالمثل العليا

تسألني عن أقرب الأسباب لإعادة حسن الظن بالأخلاق، وتقوية
الإيمان بالمثل العليا. هنا كل المسألة. ولست أدري من يبدأ بالعمل
ومن يعطى المثل. أهم الأفراد أم هم أصحاب السلطان؟ ولقد ذكرت
عمر بن الخطاب وزهده في متع الدنيا وفي يده مفاتيح السكندر وتحت
قدميه دول وعروش. هذا حقيقة خير مثل لصاحب السلطان ينبغي
أن يضرب للأفراد والمحكومين كي يقتدوا به ويؤمنوا بأن العظمة
الحقيقة لا تعرف الحرص على المادة. ولكن الدرس والمثل قد يأتي
أيضاً من الفرد المحكوم وما إخالك تنسى موقف ذلك العالم الفاضل
الشيخ الطويل يوم دعاه الخديو فأبى إلا أن يذهب إليه بعباءته البالية
الممزقة التي عليه فلما ألح عليه الناصحون أن يرتدي عباءة جديدة صاح
فيهم: أهو يريد رؤيتي أنا أم رؤية العبادة، إن أراد العبادة فها هي
ذي أحملوها إليه وإن أرادني أنا فاني أذهب إليه كما أنا وما إخالك
تنسى كذلك موقف علماء الأزهر يوم دعاهم نابليون الظافر وأراد
أن يزین صدورهم بالنياشين، فراعته أن رأى أيديهم الغاضبة قد
انزعجت نياشينه وألقت بها إلى الأرض في حضرته، فلم يغضب
وابتسم وعلم أنه أمام رجال يحترمون أنفسهم. وهو أول من يدرك
أن الانتصارات والجيوش لا قوة لها ولا حيلة أمام رجل يحترم نفسه.

فأنت ترى معي أن الدرس الخلقى قد يأتى من صاحب السلطان كما يأتى من الفرد المحكوم . . . المهم فى الأمر أن يوجد المثل الحى للأخلاق الحرة. التزبئة العظيمة فى أى طبقة وأى بيئة وأى زمان . وأعود فأجيب على سؤالك الآن فى غير تردد أن أقرب السبيل إلى إعادة حسن الظن بالأخلاق والمثل العليا هو وجود المثل بالفعل . هو ظهور رجل واحد ومثل واحد حى نراه بأعيننا ونسمع صوته بأذاننا ونلمسه بأيدينا ونقبه بأفئدتنا هل كل مجتمع قد يرعى إخراج مثل هؤلاء الرجال أو أن أولئك لا يظهرون إلا فى مجتمع يهينهم للظهور ؟

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٣٧

داء الكلام

هنالك أمر آخر يدعو إلى قلق على مستقبل نهضتنا . إن أول شيء يحزنني حقيقة وأرجو أن يكون قد امتنع عن نظرك على الأقل هو أن « الكلام » له عندنا دائماً كل القيمة ، أما (العمل) فلا يسأل أحد عنه . إن (الشكل) هو الذي يعيننا ونخلب منا اللب . أما (الجوهر) فلا نكاد نلتفت إليه . إن (الوسيلة) تنقلب عندنا دائماً إلى (غاية) لعلك قرأت في كتابي (يوميات نائب في الأرياف) كيف يهتم رجال الضبط أحياناً بتنميق تحرير المحاضر وملء القسائم أكثر من اهتمامهم بالقبض الفعلي على الجناة . ولعلك رأيت في محيط حياتنا العام كيف أن عشرين عاماً قد مضت على صر ونحن لا عمل لنا إلا الصياح بلء أفواهنا هاتفين بكلمات الحرية والاستقلال . ولقد نبذنا كل شيء ، وتركنا كل عمل من أعمال النهضة الحقيقية وجلسنا نتقاذف أقوالاً ونردد كلمات . إلى أن شاء القدر آخر الأمر أن يتخذنا من هذا النكاسل والنعوذ فقال : (هاكم الاستقلال) فقلنا : (هات) ثم أخذنا هذه الكلمة وجلسنا كما كنا لا ندري ماذا نصنع بها . نحن نقع دائماً في الحيرة كلما تركتنا الظروف وجهاً لوجه أمام العمل المنتج ، وكأننا لا نجد فرجاً ولا مخرجاً إلا في الصياح والجدل . إنني لأخشى أن تظهر في الأفق كلمات أخرى أو أن

نخترع موضوعاً جديداً للتصايح يشغلنا من جديد عن المضي
الجدى في حركة النهوض المنشود . آه . العلة كلها ها هنا :
إن روح العمل وعبقريه الخلق ثمار لم تلق بسد بذورها في
أرض مصر ! حاجتنا شديدة إلى هذا الصنف من رجال العمل
الذين لا يصرفهم عن الخلق والبناء شيء في الوجود . إنك
ولا ريب تذكر نابليون في غزوته لروسيا ، وكيف خذله
البرد والجليد ، غير أني أريد منك أن تذكر ماذا فعل هذا
الرجل عندما وحد نفسه محصوراً في تلك الاصقاع لا يدرى
ماذا يفعل . أسْتَغْفِرُ الله . إن الرجل العظيم يعرف دائماً
ماذا يصنع ولا يطيق مطلقاً أن يقعد دون أن يخلق شيئاً . فهو
لم ينفق وقته في صياح ولم ينتظر الغد مستلقياً على ظهره ، ولكنه
شمر في الحال عن ساعديه للعمل وجعل وهو في كربه وضيقه
يفكر في إصلاح بلاده ، ويضع بالفعل وهو بعيد عنها ،
الأسس اللازمة لتنظيم الحركة الفكرية والاجتماعية فيها : وكان
من بين تلك المنشآت مشروع الكوميدي فرانسيز إحدى
منائر الثقافة الفرنسية في العالم ، وكذلك فعل هذا الرجل
في مصر يوم حطم خصومه أسطوله وقطعوا صلته بوطنه ،
فلم يضعف عزمه ولم تفتر روح العمل فيه وقال . (لم أصنع
في مصر حضارة أخرى ؟) وشرع من فوره يبنى دعائم

المعاهد العلمية ويضع أحجار النظام والاستقرار لطرائق الحكم
وأسياب العمران . ولكن : من المسئول عن موت روح
العمل المنتج في هذه الأمة ؟ أم رؤوسها الذين عودوها
سياسة الكلام ؟ أم هي الأمة نفسها التي لا تحب ولا تحمل
بعد غير هذا الصنف من الطعام ؟ ! !

من مساجلات مع منصور فهمى عام ١٩٢٧

البرنامج اولا

مادمننا قد اتفقنا على أن « العمل » قد حان له أن يحل محل « الكلام » وما دمت يا صديقي قد طلبت إلى أن أمضى في ذكر التفاصيل . فإني أقول لك إن أول ما ينبغي عمله هو وضع « البرنامج » وقد ترد على بأن « البرنامج » هي أيضاً مما يدخل في منطقة (الكلام) ولكن ما الحيلة إذا كانت حتى هذه الخطوة الأولى في سبيل العمل لم نخطها بعد . إن كل النهضات التي قامت بها الحكومات الحديثة في بلادها خصوصاً بعد الحرب قد تمت وفق منهج مرسوم وتحدد لتنفيذهازمن معلوم . فقالوا : هذا (نظام خمسي) وهذا (نظام عشري) تبعاً لعدد السنوات التي قرر الإخصائيون أنها لازمة لظهور المشروعات فأين نحن من هذا ؟ أتستطيع مثلاً أن تقول لي هل وضع نظام ثابت لحو الأمية من البلاد في ظرف سنوات معلومة كما فعلت العراق ، حتى ترتب على هذا الحدث نتائج اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية فواجه بها هذه النهضة القادمة ؟ أيمكنك أن تقول لي هل هنالك مشروعات اقتصادية درسها الخبراء وقرروا لها زمناً تتم فيه وتخرج للبلاد في نهايته وسيلة جديدة من وسائل الانتاج تزيد الثروة الأهلية الزيادة التي تتعادل مع نمو عدد السكان وتسد الحاجات المنتظرة والمطالب المستقبلية ؟ أو أننا سنظل دائماً كما نحن وكما كنا منذ أن أدخل الخديوي اسماعيل

في مصر زراعتي القطن والسكر لا تفكر في مصدر جديد للثروة ينفعنا في الغد؟؟ وهل في مقدورك أن تقول لي هل درس الباحثون سياسة ثابتة للتعليم الجامعي وخطة واضحة لتوجيه الثقافة العامة في نهضتنا؟ وإلى أي مدى ننحون نحو الحضارات القائمة أو أننا سنبقى حيارى في حدائق المعرفة لا ندرى ماذا نأخذ وماذا ندع! فأنت ترى إنه لم يوضع شيء بعد — حتى على الورق — لتحديد العمل والزمن الذي يقتضيه التنفيذ لمختلف فروع نهضتنا، بل إنه لم ينظر إلى الآن حتى فيما يجب البدء به حالا من هذه المرافق المختلفة تبعاً لحاجة البلاد حتى لا يضيع علينا الوقت فهل أنت ما زلت من المتفائلين؟!

فساد الدولار

حتى على فرض فراغنا من رسم الخطط ووضع البرامج، فالباقى بعد ذلك كثير، بل إن مجرد السير الآن فى طريق العمل عسير. إذ بمن نعمل؟ إن الأيدى العاملة قد لحقها الفساد، فهى مثل تروس الساعة المختلة تدور فى غير حدود، فيد الوزير أحيانا تمتد إلى الأنظمة والأوضاع تقلبها رأسا على عقب دون أن تصغى إلى كلام أصحاب الاختصاص من المرؤوسين، وإن الموظف مهما يكبر ومهما ينبغ لا يعدو أن يكون تابعا يتلقى أمر رئيسه ويؤمن على رغباته وإن علم أن فيها الضرر لمصلحة البلاد. وهكذا أهدرت الشجاعة الأدبية. وجبنت النفوس عن تحمل المسؤولية. بل إنه ليحدث أكثر من ذلك. فإن المسألة الفنية لتعرض أحيانا على لجان من الاختصاصيين يبحثونها فى شهور. فيأتى وزير يضرب بنتيجة البحث الطويل عرض الحائط ويؤشر بقلمه الأحمر مناقضا ما جاءت به اللجنة، كما نأهوا يتحدى تلك العقول ليظهر أن رأيه «المرتجل» لساعته خير وأحكم من آراء المختصين بعد درس شهور. ولكن الأدهى والأمر أنه يجد فى أكثر الأحيان من بين موظفى وزارته ومن بين هؤلاء الإخصائيين أنفسهم من يقول له «آمين، آمين» فهل يمثل هذا الدولار الحكومى نستطيع أن نسير فى تنفيذ خطة أوبرنايج؟ فالى أن يعلم الوزير كيف يحترم رأى

موظفيه المختصين . وإلى أن يفهم هؤلاء الموظفون كيف يحترمون آراءهم . إلى أن توزع الأعباء والمسؤوليات بين الوزير ومعاونيه ، ويحل النظام محل الفوضى في علاقة الرئيس بالمرؤوس ، فلن تكون الآداة الحكومية صالحة بعد للسير الجدى في تنفيذ مشروع من المشروعات ، وإنى أسوق إليك مثلاً صغيراً للأداة الحكومية الصالحة ، مذكروه يوماً صحفى أمريكى قال إنه ذهب لمقابلة وزير خارجية إنجلترا قبيل إعلان الحرب العظمى ليسأله عن موقف إنجلترا من ذلك الحدث الهائل الذى يهدد العالم فوجد الوزير مطرقاً فى مكتبه وإلى جانبه وكيل وزارته الدائم غارقاً بين تقارير فنية ووثائق تاريخية . فرفع الوزير رأسه وقال للصحفى : « تسألنى عما إذا كنا سندخل الحرب ؟ ! لست أنا الذى يستطيع أن يجيب الآن عن هذا السؤال الخطير . ثم أشار إلى وكيل وزارته وقال : « أن وكيل الوزارة يبحث الموضوع من كل وجوهه وهو وحده الآن صاحب الكلمة وعليه تقع النبعة ونتيجة أبحاثه هى وحدها التى ستشير لنا الطريق كسياسيين ، فنقرر إذا كان من واجب بريطانيا العظمى دخول الحرب ؟ ! »

الحرب بكل الأسلحة

كارثة أخرى من الكوارث التي نسكت بها مصر ، هذا الغلو والإغراق في الخصومات . فإذا اختلفنا على رأى فنحن أفيال هائلة تدوس كل شيء وتحطم كل شيء إن في كل بلد راق حدوداً مقدسة تقف عندها الخصومة ، وأسلحة لا يلجأ إليها أبناء الوطن الواحد . فاقحام الدين مثلاً في ميادين الخلاف السياسى أمر لا يمكن أن يحدث اليوم في أى شعب ديموقراطى متحضر . فالديموقراطية ليست كلمة تقال في الخطب لأنها جميلة ذات رنين . ولا هى بناء شامخ يسمونه البرلمان . لكن الديمقراطية هى روح المساواة والإخاء وحرية الفكر المكفولة للجميع . وإن كل طعنة تصيب كتلة الوطن فتحللها إلى عناصر أو طوائف إنما هى طعنة مسمومة تصل مباشرة إلى قلب الأمة وصميم الديمقراطية . كذلك ينبغى أن نتذكر دائماً أن الخصم فى المبدأ هو مواطن مصرى قبل كل شيء . وأن خصومة المبادئ ليس معناها القضاء المبرم على الأشخاص بكل الأسلحة ، وتعطيل كل أدوات المنفعة التى قد ترجى منهم فى وقت من الأوقات ، فليس من حق مواطن أن يقضى على مواطن آخر قضاء يخرج به إلى الأبد من ميدان النفع العام . وإنما الغرض الذى يسعى إليه الجميع هو خدمة الوطن وحده . فلتكن الخصومة فى

حدود التنافس على القيام بخدمة المجموع . وليعتقد كل في خصمه
أن مجزه يوماً عن خدمة بلاده على الوجه المطلوب لا يمنع من استطاعته
ذلك في يوم آخر ، فلتكن إذن السهام المصوبة من طرف إلى
طرف في غير مقتل من الشخصية والأدمية والشرف فليس من
مصلحة الوطن أن تفرش أرضه بصرعى وقتلى من أبنائه العاملين
إنما المصلحة هي في أن تتداول السواعد إدارة العجلة ، وأن تهيأ
لكل يد الفرصة لخدمة البلاد .

نعيم الانتخابات

معذرة يا صديقي إذ أقطع اليوم سلسلة مناقشاتنا الإصلاحية
لأحدث في خاطرة مرت بي ، ولعلمها مرت بك . فالأفكار الآن لا يشغلها
غير أمر واحد : الانتخابات . يخيل إلى أن موسم الانتخابات نعيم
لكل الناس إلا للمتقدم إلى الانتخاب : ويل لهذا المتقدم . إن كل
خطوة يخطوها إلى الميدان نفقة وغرامة . فهو لا يحرك رجله قبل أن
يدفع مائة وخمسين جنيهها «رسوم الامتحان» ثم يسير فاتحاً جيوبه بالمال
وعيونته بالحرص والحذروقه بالكلام والخطب والوعود . أما نحن
معشر النظارة و (المتفرجين) المحايدين فهو لنا تسليمة أمتع من سباق
« الدربي » وإني لأرى الناس حولى مبتسمين يتحدثون في أخبار
هذه « الملهة » بلذة واهتمام . وأرى فئة العارفين والحذاق يستعرضون
المرشحين ويوازنون بينهم كما يوازن أهل الخبرة بين كرام الجياد
وهي تتبختر في المضمار فوق العشب الأخضر قبل بدء السباق . على
أن النعيم الحقيقي فيما أرى هو من نصيب الفلاح المسكين . هذا الخلق
العارى القدمين الذي يجوع أكثر الأسبوع ، ولا يرى وجه القرش
إلا مصادفة ، كما نرى نحن وجه الحظ عابراً في طريق الحياة . هذا
الذي يسمونه إنساناً بحكم النوع وهو في الحقيقة لا يسترعى التفات
إنسان . هذا الآدمي المهمل الذليل لا يرد اعتباره ولا تعود إليه
أدميته إلا في أيام الانتخابات : فان « صوته » الضائع مع الريح

كأنه صوت كلب ضال ، هو اليوم « صوت » له خطره وله سعره وله طلابه وله من يجري خلفه ويقدره قدره ويدفع فيه نقوداً . وهذه المعدة الخاوية التي لم يدخلها غير الفجل والجن ذى الدود تنتظرها اليوم الولاثم وتذبح من أجلها ذوات الأجنحة والقرون .

وتلك الأقدام الخافية التي لم تعرف غير المشى خلف حمير « السباح » توضع اليوم تحت تصرفها السيارات « والتاكسيات » تنقلها من حفلة إلى حفلة . نعم إنها لا تحسب من عمر الفلاح ، وهو بذكائه يعرف أنها لا تدوم فهو يستمتع بها من غير غرور ، ويرأها تزول فما يأسف ولا يزيد على أن يقول :

— كانت أيام (استنخاب) ركبنا فيها (كنبابل) وأكلنا (زفر) ودخلت جيوبنا (نقدية) .

من يدري لعل فريضة (الزكاة) التي ذهبت مع الزمن قد عادت اليوم في ثوب جديد . نعم إن لم يكن من فضيلة الانتخابات إلا أن تشتري صوت الفقير بالذهب وتسد فيه بالطعام ، وتركبه مالم يركب وتريه مالم يروحيظه بمظاهر العناية والاحترام ولو إلى وقت قصير لكفى بها فضيلة . إن الانتخابات في نظري ليست حتى الساعة في هذا البلد مظهرًا من مظاهر الديمقراطية . ولكنها أول معلم يفهم الفلاح أولاً معنى الحياة الإنسانية ويندقه طعم الديمقراطية .

(شركة مقاولات) الانتخابات

نعم يا صديقي . لقد خطر لي أن في الإمكان إنشاء مثل هذه الشركة تسهيلات للعمل فان من المرشحين من قد يكون مثلي ومثلك في براءة الحمل الوديع لا يعرف كيف ينال من خصومه ولا كيف يمدح نفسه ولا كيف يضحك على ذقون الناخبين . فما أحسن لمثلنا من أن يتوجه إلى مثل هذه الشركة ويتفق معها على (المقاولات) ويدفع (العربون) وينذهب إلى منزله فينام ملء عينيه وتقوم هي بكل ما يجب من إقامة السرداق وتأجير الخطباء وإعداد الولائم وجمع المعلومات عن فضائح الخصم ومثالبه الشخصية الخ الخ وما على مثلي ومثلك بعد ذلك إلا أن يذهب إذا شاء خفية على سبيل حب الاستطلاع ويجلس في سرداق الاحتفال الذي تقيمه الشركة فيرى ويسمع اللذيذ الطريف . . يرى خطباء الشركة قد قاموا أو اعتلوا المنصة واحدا تلو واحد ، يوسعونه مدحا ويسردون تاريخ حياته الحافل بكل جليل ومجيد . ويتكلمون في ذمته وطهره وكفايته ونزاهته وهو لم يره ولم يروه مرة قط . ثم يعرجون على خصمه فيطعنون فيه الطعن المرويد كرون من خصاله الذميمة وأعماله الخبيثة وخياناته وسفالاته ما تشمئز منه النفوس . وما تكاد تختم هذه الحفلات على خير أو شر حتى تقدم الشركة (فاتورة) الحساب . فاذا استكثرت المبلغ

أقسموا لك أن الشركة قامت بنفقات باهظة وأن خصمك وحده
كلف الشركة (شتائم) بما يساوى مائة جنيه إلى هنا لا بأس . لكن
إذا خطر لك أن تسير قليلا في البلدة لوجدت عجبا . فان سرادقا
آخر قد نصبته عين الشركة لخصمك هو أيضاً . وقد قام فيه خطباء
آخرون من قبل الشركة يمدحون الخصم ويفسلون عنه مالحقه في
السرادق الأول وينزلون بك أنت كل تهمة وكل عيب ويلصقون
بك من (الشتائم) ما يساوى مائتي جنيه . فاذا ذهبت غاضبا إلى
الشركة قالوا لك :

— يا حبيبي حضرتك (زبون) وحضرته (زبون) !!
فاذا صحت محتاجا ابتسموا لك في أدب بما معناه أن : (لافضل
لزبون على زبون إلا بال...)

هذه الشركة الخيالية غير موجودة من حسن الحظ على هذا
الوضع . ولكن من يدري . لعل الحال في جوهره يجرى أحيانا على
هذا المنوال فان ما يسمونه (حفلات) الانتخاب يؤدي غالبا إلى مثل
ذلك بدون أن نقصد . وإن يد (التنظيم) هذه إذا دخلت في مسائل
الواجب والضمير فانها تتجه غالبا إلى فم الساذجين فتزجه بألوان
من الطعام يضيع معها صوت الواجب والضمير !!

العرائس

ترى ونحن على هذه الحال من البراءة والسذاجة لو حدثتنا النفس
الملعونة بالنزول من أبراج فكرنا العاجية والجلوس تحت قبة البرلمان
الذهبية ماذا كنا نخطب قائلين للناخبين ؟
أما أنا فاني كنت أقول هكذا :

سادتي الناخبين :

باسم الديمقراطية أتقدم إليكم ملتمساً ، عطفكم ، إني أحب
الديمقراطية ، ومن ذا الذي لا يحب الديمقراطية ؟ تهألوني ما معنى هذه
الكلمة التي تسمعونها هذه الأيام كثيراً ؟ تعريفها بسيط « إن
الديمقراطية هي أن رهطاً من الجياع الحفاة يمنحون مرتباً شهرياً قدره
أربعون جنيهًا لرهط آخر من الثروة العتاة » ! لعل هذا المنطق يدهشكم ،
ولكن تلك هي الحقيقة ! هنالك أعجب من ذلك . فان جوف الحقيقة
مملوء دائماً بالغرائب لمن أراد الغوص عليها . إن بيننا معشر المرشحين
وبينكم معشر الناخبين سوء تفاهم كبير . فأننا نطلب إليكم أن
تخدمونا وأنتم تحسبون أننا وجدنا كي نخدمكم ، أنتم تظنون البرلمان هو
المكان الذي نتكلم فيه عنكم طول الوقت وعن جوعكم وفقركم وجهالكم
ونبحث تحت قبته كل يوم عن وسائل رخاءكم ورقمكم ، ونحن نرى
في تلك القبة الذهبية شرفاً رفيعاً لمن استطاع أن يقتنص له تحتها مقعداً

وترى في عضوية المجلس لقباً نتوج به أسماؤنا ونزين به (بطاقتنا) .
 إن عضوية البرلمان في نظرنا ليست إلا عربة (الرولزرويس) التي نرفع
 بها مركزنا الاجتماعي في أعين الشعب . ونحن إذ ننفق المال في هذا
 السبيل إنما ننفقه ونحن معتقدون أننا نشترى به وظيفة أولقياً أو مقاماً ،
 فإذا ما ظفرنا بما نريد بفضل أصواتكم ، ووجدنا أيديكم العارية
 السمراء تحملنا إلى داخل ذلك المكان ، فانتنا نتربع فيه كالعرائس في
 (القترينات) ، ومهما صحتن وفاديتن وصرختن بعد ذلك فانتنا لا نسمع
 أصواتكم لأن بيضنا وبينكم حاجزاً من زجاج ولن تستطيعوا أن تلمسونا
 أو تقربونا ، ولكنكم تستطيعون أن تشيروا بأصابعكم من خلف البللور ،
 فنحسب ذلك منكم إعجاباً ، فتزداد صلفاً وتيهاً !

أيها الناخبون : عجباً ، إني حقاً لعلى غاية السذاجة إذا أقضى
 إليكم بكل هذا في خطبتي التي على أساسها أنتخب ما العمل الآن ؟
 أنتخبونني برغم ذلك ؟ لعل صراحتي على الأقل تشفع لي ؟ !

الشحاذون

إن تعاقب الوزارات السريع في مصر ، يقذف اليوم على أفاريز الفراغ بعدد وافر من أصحاب (المعالي) لا يصنعون شيئاً غير الانتظار في (ميادين) السياسة ، ممدودى الألف كف . ينتظرون ماذا هؤلاء المتعطلون ؟ ينتظرون دورهم في العودة إلى الركوب .

نعم . إن (الحكم) أصبح الآن مثل أرجوحة (الخيول الخشبية الدائرة) التى يركبها الأطفال فى مقابل مليات ، ولو أعطى طفل ألف مليم لأنفقها كلها فى هذه اللعبة اللذيذة ، فهو يحب الركوب لمجرد الركوب فوق هذا الحصان الخشبي المطلى بالذهب ، الملون بأزهى الألوان الخادعة ، وإن دوره ينتهى ورأسه يميل من الدوار قلا يفيق إلا وقد أنزله صاحب الأرجوحة على الأرض ، فيظل واقفاً بلا حراك ينظر إلى حصانه يدور بغيره ، وفى قلبه الصغير حسرة ، وفى عينيه الزائغتين علامات الصبر النافذ ، إلى أن تنتهى الدورة فبخفق قلبه أملا فى أن يعود إلى الركوب ، وهكذا دواليك !

أما الفائدة من ذلك فلا شيء غير اللهو والسرور فهو متى امتضى صهوة الحصان الخشبي تملكه الغرور ، وظن أن هذا غاية الأمل وأنه قد وصل . ويلعب برأسه دوار «الأرجوحة» ، أو دوار الساطة الباطاة و «الفروسية» الكاذبة ، فيقنع بذلك ولا يفعل شيئاً غير

ازدراء الواقفين في الانتظار وهو يمر بهم من البرق متعاليًا متصايحًا
صياح اللذة والظفر !

فالحياة في مصر لهو في لهو ، وتعطل إلى جانب تعطل ، وفراغ إلى
جانب فراغ . الجميع من شبان وسياسيين ، وقادة ومقودين ، لا عمل
لهم غير التطلع إلى خيول « المناصب الحكومية » الخشبية وهي
تدور ! وهذا الروح العام قد أثر في روح الشعب كله ، فنحن لانكاد
نرى طرقات مصر خالية من أناس أشداء يتطلعون إلى موائد المقاهي
ويمدون أيديهم يطلبون شيئًا ، لقد سرت روح البطالة والسؤال في كل
طبقات الشعب ، الجاهل منها والمتعلم ، وكدنا نعتقد أن مصر قد نسيت
أن في الوجود شيئًا يسمى العمل والكسح والاعتماد على النفس ، إن
مصر قد أصبحت بلدًا تخفق عليه راية « التسول » العام ، وهنا الخطر
الدائم ، ولا أبالغ إذ قلت إن روح « الشحاذة » موجود في كل نفس
مصرية في الوقت الحاضر ، فالوزير الذي تسول طويلا في انتظار
منصبه لا يكاد يدخل مكتبه كل صباح حتى يرى هو الآخر أفواج
المنتظرين من أصحاب السؤال يمدون أيديهم ليعطيهم مما أعطاه الله ،
فيثقلون كاهله بطلبات النقل أو التعيين أو الترقية أو العلاوة أو إلغاء
عقوبة أو التماس منحة ، ويضيع الجزء الأكبر من عمل الوزير اليومي
في التخلص من هؤلاء السائلين .

وتمكنت هذه العادة المرذولة إلى حد نرى معه بعض الناس

يفتظرون حتى يسألوا جيرانهم الجرائد ليقرأوها « شحاذة » وإلى حد أرى معه أنا المؤلف كل يوم من يسألني نسخة من كتيبي (شحاذة) ولا أستطيع أن أجلس في مكان حتى أسمع من حولي أصوات الالحاح في سؤال شيء من الأشياء

حقيقة إن الحياة في مصر أصبحت لا نطاق ، فاما أن يتغير هذا الروح العام وإما أن نياس ونحكم على هذا الشعب أقسى الأحكام . على أنى أعود فأقول دائما إن الذنب في كل هذا واقع على كاهل القادة وخدمهم من رجال الحكم والسياسة ، فهم الذين علموا الشعب كله وغرسوا فيه روح البطالة والتسول والصياح ! ولو أن الشعب رأى رءوسه ورجالاته يعملون في سكون ، لخلجل وعمل هو أيضا بغير صخب ولا صبحنا حقيقة شعبا متحضرا يعمل ولا يتسول .

أريد أن أضع تحت أنظار ، وزرائنا ، مثل أبي بكر يوم ولى الخلافة ، فقد واصل عمله في بناء الدولة الفتية حتى رضى واطمأن ، فجهز إبله ذات صباح ، وأراد أن يخرج في تجارة له ، فاعترضه الناس دهشين :
— كيف تخرج في تجارتك وأنت الخليفة ؟
— وكيف أعيش وتلك صناعتى ؟

نعم ، هذا الرجل العظيم لم يكن يعتقد قط حتى ذلك الوقت ، أن سياسة الدولة عمل يرتزق منه ، إنما هو في نظره واجب محتوم عليه كعضو من أعضاء الأمة ، أما الارتزاق وأسباب العيش فينبغى أن يكفلها عمل آخر وكدح آخر !

الأحزاب والشعب

سألتني إحدى المجلات السياسية عن رأيي في أحزابنا المصرية ومدى قيامها بواجبها نحو تحسين حال الشعب . فقلت :

— إن المفروض في ممثلي الشعب ، أن يتقدموا إلى المقاعد النيابية ، ببرامج ثابتة واضحة ، محدد فيها بالدقة ، الخطط ، ووسائل التنفيذ ، لمطالب طبقات الشعب المختلفة التي يمثلونها ولكن الذي يحدث اليوم هو غير ذلك ، فإن كل مشروع حيوى يهم الشعب ، إنما يصدر عن جهات أخرى غير ممثلي الشعب ! ولم نعد ندري ، فيم يمثل هؤلاء الممثلون الأمة ؟ خذ مثلاً ، مشروع مقاومة الخفاء ، ما كان أحرأه أن يكون جزءاً من برنامج حزب من الأحزاب إن كلمة أحزاب ، كما تفهم فى مصر ، تطلق فى الحقيقة على سبيل التجوز ، إذ ليس فى مصر حزب ، بالمعنى الحقيقى لكلمة حزب ، كما تفهم وتستعمل فى النظم الديمقراطية الصحيحة ! إنما فى مصر « فرق » منفصلة تسمى أحزاباً لاهم لكل فرقة من هذه (الفرق) إلا (توزيع) المقاعد البرلمانية ، والحصول على المناصب الوزارية ، وتنظيم حركة (تذاكر) الانتخاب أما برنامج (الرواية) فليس من هم أحد التفكير فيه ! فالأمر فى ذلك يسير على نمط حفلات التمثيل (ومتعمديها) الذين يركزون كل نشاطهم ،

في مسألة توزيع المقاعد ، وتحصيل قيم التذاكر . . . أما مسألة (البروجرام) والغرض من الحفلة وما إلى ذلك ، فلا يلتفتون اليه ، ولا يجعلونه من شأنهم ! . . . وإني لأحب هنا أن أقول ، إنه قد آن الأوان ، لأن يسأل الشعب عن البرامج ، شغل المقاعد .

إن الشعب اليوم ، قد تغير في نظري ، وإن عقليته قد تكونت ، وأصبحت له رغبات حيوية تمس صميم غذائه اليومي ، وحياته المادية . . . إنه يطالب اليوم أن يعيش ، لا مغنويا فقط ، كما كنا ننادى بالأمس ، ولكن ماديا أيضا ، عن طريق اللقمة المتوفرة للملايين من المحرومين . -- ألم تتجه العناية في هذه الأيام إلى طبقات الشعب الفقيرة ؟ -- هذا صحيح . ولقد كثر جمع الصدقات ، ونشطت حركة

التبرعات . . . ومهما تكن الدوافع إلى ذلك ، فهي على كل حال ، عواطف كريمة ، ثم عن تيقظ روح الأريحية في نفوس ذوى الفضل من الأغنياء والقادرين . على أنه ينبغي لنا ، مع ذلك ، أن نتساءل : إلى متى نظل في مصر ، ونحن نملك فيها نظاما ديمقراطيا ، نعتقد أن إصلاح شؤون الطبقة الفقيرة . . . معناه التصديق والاحسان ؟! وإلى متى ، ونحن لدينا برلمان ، لا نجد فيه ممثلين للملايين الطبقات الفقيرة ، يدافعون عما تراه هذه الطبقات من مصلحتها ، مصلحا لحالها ؟! ما معنى الديمقراطية إذا لم تكن هي تمكين طبقات الشعب كلها على اختلاف مراتبها ومطالبها -- من الدفاع عن نفسها بنفسها

تحت قباب المجالس النيابية ؟ !

ما من برلمان ، في أى بلد ديمقراطى في العالم ، يعرف هذا الوضع الذى نحن عليه . . . لأنه ما من أحزاب في العالم تكونت هذا التكوين الشخصى المرتجل كأحزابنا المصرية ، ذات الصبغة الشخصية الواحدة المتشابهة ! .

في البلاد الأخرى أحزاب ، ذات مبادئ مقررة ، كل منها يدافع عن حقوق طبقة من طبقات الأمة ، ومن ضمن تمثيل الطبقات المختلفة على نحو يكفل التوازن بين المصالح . بينما أحزابنا ، على تعددها وكثرتها ، لا تمثل في حقيقة الأمر ، غير طبقة واحدة ، هي طبقة الملاك . . . هي التى نسمع صوتها في البرلمان ! وهي التى اتخذت لنفسها صفة القوامه على الطبقات الأخرى . وهي التى تستطيع أن تمنع وتحرم الطبقات الأخرى ، حتى من حق الاعتراف بنقاباتهما التى تنظم شؤونها ، وتدافع عن حقوقها ! !

ويحضرني هنا ، مثل أحب أن أذكره ، فقد وجدت في حانوت حلاقة ذات مرة ، حلاقين أحدهما يعمل إلى جانب الآخر ، ويتقاضيان أجرين متساويين ، الأول مصرى ، والثانى يونانى ، فعلمت شيئاً عجيباً . . . فقد قال لى العامل المصرى إنه وهو فى بلاده ، لا يستطيع أن يعلم أبناءه بالبحان ، ولا أن يستشفى بالبحان . وإنه لا يجد أحداً ولا هيئة تعينه على تكاليف العيش . . . بينما زميله اليونانى يعلم أولاده كلهم بالبحان ، في

المدارس اليونانية . ويستشفى هو وعائلته بالمجان في المستشفيات اليونانية .
لأن هناك هيئات ونقابات يونانية ، تعنى أتم العناية ، بمساعدة العمال
والأجراء اليونانيين . . . وقد روى لى هذا العامل المصرى أيضاً «
أنه ذهب بابنته الصغيرة يوماً إلى مدرستنا الأولية ، فوجد عاملاً مصرياً
آخر ، قد عجز عن دفع مصروفات ابنته ، على ضآلتها « عشرة قروش
شهرياً » فاضطر إلى العودة بها إلى البيت ، مما حزنه نفس زميله ،
فأخرج « أجره اليومي » من جيبه ودفعه من أجله .
لا شك أن أكثر الناس يوافقوننى على أن هذا الوضع للأشياء يجب
أن يتغير .

الفكر والشعب

سألتني كذلك مجلة سياسية أخرى :

— هل ترون أن الكتاب الاجتماعيين في القرن الماضي كانوا

هم قادة الإصلاح في أوروبا وأمريكا ؟

— بالتأكيد . بل لا يزال الكتاب حتى اليوم هم الذين يمهّدون

السبيل للإصلاحات والانقلابات الاجتماعية المقبلة . وإني أرى أن كتابات

روائي مثل شارلس ديكنز كان لها الفضل في حمل ساسة إنجلترا من

محافظين وأحرار وعمال على وضع المسألة الاجتماعية في رأس برامج

أحزابهم . واليوم بالذات برغم الحرب وأهوالها لا يفتأ ويلز و برناردشو

وبرستلي يرسمون الاتجاهات التي ينبغي أن يتجه إليها بعد الحرب

لا الشعب البريطاني وحده بل البشر كافة . فهم يبعثون انقضاء عهد

الشقاء الاجتماعي وبزوغ عهد يستطيع أن يعيش فيه كل فرد حياة

جديرة بالكرامة الآدمية ، فلا إغراق في البؤس ولا إغراق في الترف

بل نظام يقوم على التوازن الاجتماعي والتضامن والتعاون . نعم

الكتاب والمفكرون هم قادة الإصلاح ، وهم واضعوا أسسه وخططه

في كل زمان ومكان .

وإن كانت حركة الإصلاح الاجتماعي في مصر قد تأخرت حتى

اليوم فذلك سببه تقصير الكتاب والأدباء . إني أتمنى بملء فمي

الأدب المصرى بهذا الجرم .

إن الأدب في مصر لم يكن إلى عهود قريبة غير حلية عاطلة في معاصم الأدباء . لقد كان يعيش هؤلاء الكتاب لافقط على هامش المجتمع بل على هامش حياة الآخرين من أصحاب الجاه أو الثراء . لم يكن الأدب في مصر إذن أداة تسجيل وتوجيه لشئون المجتمع ، ولم تكن أقلام الكتاب أبواقاً توقظ النائمين ، ولكنها كانت معازف ينعس على أنغامها المترفون . وإذا كان هؤلاء هم كتاب أمة وهذا هو أدبها فلا عجب إذا ظلت حال المجتمع المصرى على ما تراه اليوم . .

على أن الأمر بالضرورة قد تغير الآن . وإنك تستطيع أن تقول إن الأدب في مصر يتجه في الطريق الصحيح ، وإن كثيراً من الكتاب المعاصرين نشروا كتباً وأفكاراً تتصل بصميم المجتمع ، وإن آراءهم تسمع وتحترم وتؤثر أحياناً في اتجاهات الحياة العامة . . كنتم أول من اقترح منذ عامين إنشاء وزارة الشؤون الاجتماعية في حديثكم المشهور عن النظام البرلماني . وهاهي ذى قد أنشئت .

— إنى اقترحت أن يعدل اسم وزارة الأوقاف واختصاصها وتعمل « وزارة الأوقاف والحياة الاجتماعية » بهذا النص ، وكانت فكرتى في ذلك أن يتسنى تحويل أموال الأوقاف إلى وجوه المنافع الاجتماعية المثمرة كالملاجئ والمستشفيات والنوادي الرياضية الخ . . ولكن فكرتى قد أدت إلى إنشاء وزارة مستقلة لشئون المجتمع

فضاعف ذلك التفات الناس إلى الفكرة الاجتماعية في ذاتها . وكان في مجرد وجود هذا الهيكل الرسمي المخصص للمسألة الاجتماعية أقوى دعابة لهذه المسألة في أنحاء البلاد . مما جعل الشعب كله يهتم بالمسألة الاجتماعية بعض اهتمامه بالسياسية . وأصبحت تثار في البرلمان قضايا الفلاح والعامل وحقوقهما في حياة إنسانية معقولة ، وحصة الفقير وحقه في معونة الغنى . وأصبحنا نسمع كبار الأمة يتحدثون عن ضرورة الرقي بمستوى حياة الشعب . وكثرة المحاضرات في كل مكان وتكونت جمعيات الإصلاح . وارتفعت أصوات الرحمة من القلوب وكلمات العدالة والانصاف من الأفواه ، كلها مجمعة على أنه ينبغي وضع حد لما نراه من استئثار مئات من أهل هذه البلاد بالخيرات وترك الملايين في جموع وعري كالسائمات . ولكنني أقول باعتباري كاتباً إن الأمر لم يعد في حاجة إلى توجيه فإن حال الشعب الآن لا يختلف فيه اثنان وإن قادة الرأي ورجال الأمة ومفكراتها يعرفون علل الشعب أتم معرفة ويوضحونها ويصفون لها العلاج . . وفي كل يوم يزداد عدد هؤلاء المفكرين والدعاة وتنسع دائرة المصغين إلى رسالتهم . إلى أن يأتي اليوم الذي تصبح فيه المسألة الاجتماعية هي المسألة الأولى في الدولة ، لها صحافتها ولها سياستها ، وعلى أساسها تتقدم الأحزاب إلى الحكم ، ويكون النجاح أو الإخفاق في تحقيق برامجها هو الذي يبقى الوزارات أو يسهطها .

فها أنت ذا ترى ما أرمى إليه : أن المسألة الاجتماعية عندنا هي في طور « الهواية » ولن تدخل في طور « العمل الجدى » إلا إذا طالب بها الشعب نفسه . . ولما كنا في نظام ديمقراطى فان الشعب عندئذ يكون أحزابه ويفتخب ممثليه طبقاً لهذه المطالب ، فالى أن تصبح إذن المسألة الاجتماعية في مصر ذات تأثير مباشر فى أداة الحكم كالمسألة السياسية سواء بسواء ، فليس لنا أن نقول إن مصر مسأله اجتماعية على الإطلاق .

(كادر) المقامات

إني مقر للتخفيض الذي حدث في كادر المرتبات . فقد آن لهذا الخلق الذي يسمونه (الموظف المصري الكبير) أن يتواضع لله وللناس هذا الآدمي الذي خلقه الله بمواهب تساوي عشرين جنبها في الشهر فقدرت له الدولة مواهبه بمائة جنبه الشهر . هذا الآدمي الذي ألفت به الطبيعة على الأرض ليزرع بسواعده العارية عملا مسؤولا ويحصد ثمرا معقولا . فاذا هو قد انزوع بين أوراق فارغة على مكتب مساحته فدان ليحصد آخر كل شهر غلة ٥٠٠ فدان . هذا الآدمي الذي صنعت له أجيال الشباب المصري في نفوسها تمثالا ذهبيا تعبد به فصرها عن الالتفات إلى المغامرات الحرة العظيمة التي قام بها أشخاص اسمهم (فورد) و (روكفلر) و (كروب) بل حتى أشخاص في المحيط المصري اسمهم (عدس) و (بنزين) و (موصيري) هذا المثل الأعلى الحكومي الذي غرسته في نفوسنا المرتبات الضخمة لعمل (الروتين) الفارغ ، هو الذي أفقدنا عدتنا من الرجال الأكفاء المنتجين ، وهو الذي أضاع من أيدينا ميادين الثروة الحقيقية فاحتلتها الأجانب الأحرار أصحاب النشاط الواقفون بالمرصاد

تخفيض آخر ينبئني أن نفكر فيه بعد أن انتهينا من كادر (المرتبات) ذلك هو كادر (المقامات) .

(مقاماتنا) أيضاً متضخمة أكثر مما ينبغي . تضخم غير طبيعي وهو ما قد يسمى في عالم الطب بالانتفاخ وفي عالم الاجتماع (بالنفخة) وكلاهما فيما اعتقد شيء واحد . وعلمته واحدة . وكلاهما إذا فتح بالمشروط وجد بداخله (هواء) فهي مجرد أسماء لا معنى لها وهي لا ترفع ولا تخفض ولا ينبغي لها أن تفعل . ويكفيننا أن ننظر حولنا فلا نجد أمة واحدة من تلك الأمم المجيدة التي تعج بالعظماء في مختلف الفروع والأعمال قد صارت على ما نسير عليه نحن الأمة الصغيرة الفقيرة . فان (مستر) (تشمبرلين) هو بلا شك من أرفع رجال الأرض مقاماً في العصر الحاضر ، ومع ذلك قد يشارك (مستر) جون كمساري المترو في لندن لقبه المتواضع . و (مسيو) دلاديه هو اليوم من أقطاب العالم ولا لقب عنده إلا ما عند (مسيو) ريمون خادم المطعم الذي يأكل فيه . تلك هي العظمة . وتلك هي الديمقراطية . بل إن (الهر) هتلر هو أيضاً لا يمتاز عن (الهر) شاخت سائق سيارته في اللقب . قد يسند إليه أحياناً لقب (المستشار) غير أن هذا حقيقة لا لقب . بل أقل من حقيقة . لأن هتلر لا ينتظر حتى يستشار في أمر من الأمور . وهو المتصرف وحده في مصير بلده المؤثر في أقدار الشعوب ولماذا نذهب بعيداً وقد كان الامبراطور العربي العظيم عمر بن الخطاب لا ينادي إلا بلفظ واحد : يا عمر . .

إنه في رأي داء تصاب به غالباً الأمم الصغيرة التافهة فهي كالطفل

يحب كل ما هو براق طنان أجوف ، وليت هذا الداء محصوراً في طبقة كبار الموظفين وحدهم ، بل إنه مع الأسف قد تعداه إلى جسد الأمة كله . فاذا كل من لبس (بذلة) يتوق أن يناديه الجميع بلقب (بك) ويكتب له الجميع (صاحب العزة) وأصبح لقب (أفندي) سباً فاحشاً . ومن أراد أن يشتم أحداً في الطريق العام أو على صفحات الجرائد أو على مظلوف خطاب . فما عليه إلا أن يقول له يا (أفندي) من المستول عن هذا المرض الخطير ؟ لا أشك في أنهم هم الموظفون الكبار أو قادة الأمر في البلاد من أصحاب « الرفعة » و « الدولة » و « المعالي » الخ فهم يتكالبهم على المظاهر الفارغة قد علموا الشعب أن يحترم الألقاب أكثر من احترامه لمجرد الأعمال .

فلعل الروح الجديد الذي يسرى اليوم في مصر الناهضة المستقلة يدفعها في طريق العمل والبطولة الحقيقية ، ويحفزها أيضاً على التفكير في تغيير نظرتها إلى الألقاب وتعديل كادر المقامات بما يتفق مع الروح السائد الآن في العالم ومع طابع العصر الحاضر في كل دول الأرض ، الديمقراطية منها وغير الديمقراطية !!

مصر والشعار الدولي

قرأت تعقيبكم على إثارتى لحركة خلع الطربوش فاسمحوا لى أن أبدي بعض حججى وأسبابى . وأبدأ فأقول أن لا محل للقلق والخوف من إضعاف الروح القومى إذا خلع الطربوش . فان الروح القومى هو فى القلب الحار لا فى ذلك (الفرطاس) الأحمر . وقد يكون هنالك محل للخوف لو أننا كننا أول أمة فى الأرض قادمة على هذا التغيير . أما وقد فعلت ذلك قبلنا أمم شرقية هى الآن خير منا فى قوة روحها القومى فليس لنا إذن أن نتردد أو نخاف . فما من أحد يستطيع أن يقول أن اليابان ذات التقاليد الشرقية العريقة قد فقدت روحها القومى يوم لبست ولبس ملبسها وهو ذو صفة دينية مقدسة اللباس الدولى الكامل وما من أحد يستطيع أن يقول إن النبى العربى كان له زى خاص . فهو قد لبس القلنسوة ولبس الامة ، ولم يكن هنالك فارق فى اللباس بين مسلم ومسيحى ويهودى . واليوم وقد أتجه العالم كله فى حضارته القائمة هذه الوجهة الجميلة ومن هذه السنة الحميدة التى ترمى إلى وحدة الزى فى الدنيا قاطبة ، هذه السنة التى عرفها الإسلام منذ نشأته فلم يحمل بزى أو بلباس حتى لا يجعل بين الناس فوارق غير ما لبسته أرواحهم ونفوسهم . اليوم وقد شعرنا بحاجتنا إلى الوحدة والمساواة داخل حدود بلدنا ، بازالة الفوارق التى تشطر السكان إلى طائفتين

غير متعادلتين . اليوم ونحن مقبلون على حياة خارجية قوامها الاندماج في عصابة الدول المتحضرة أى فائدة لنا في أن نضع بيننا وبين أمم الأرض ذلك الفارق الظاهر الصارخ الذي ينادى في كل حين بتخلفنا وحدنا دون غيرنا من الأمم الشرقية المسلمة وغير المسلمة التي أعلنت للعالم نهضتها وقامت تجلس جنباً إلى جنب مع أرقى الدول حضارة .

أما القول بأن تغيير لباس الرأس قد يجر إلى تغيير اللغة أيضاً . فالجواب عليه أن ننظر كذلك إلى غيرنا من الدول التي تماثلنا في الحال ولنبحث هل غيرت اليابان والصين وإيران والعراق لغتها بل متى كان الاتحاد في الزى يوجب الاتحاد في التفكير ؟ إن الملحوظ في حضارة اليوم أنها وحدت الزى في شعوب الأرض مع عدم المساس بشخصية كل شعب وثقافته .

وها هي ذى أمريكا تماثل إنجلترا في الزى وتتكلم الإنجليزية مثلها ، ومع ذلك فإن الأدب والثقافة وطريقة التفكير عند الأمريكيان هي غيرها عند الإنجليز .

لا ينبغي إذن أن نتمسك بكلمة « الشعار الوطني » لشعبنا أو لحكومتنا المصرية . فإن مستقبلنا قد تغير . وبعد أن كنا شعباً منعزلاً قد أصبحنا شعباً منضماً إلى حياة الشعوب الأخرى لنا ما لهم وعلينا ما عليهم ، فالأحرى أن نتمسك منذ اليوم بكلمة « الشعار الدولي » الرسمي للأمم العالم كما تفعل كل أمة تركت عزاتها وظلمتها

وخرجت إلى الحياة والمجتمع والنور .

وبعد فاني لشديد الايمان بالتطور الطبيعي لما أراه من تطور الشرق السريع نحو حياة جديدة وتفكير جديد قوامه الخروج عن العزلة والجمود إلى التجدد والتعاون مع العالم . وإني لألاحظ تقدم مصر في هذا السبيل تقدما يشبه الركض على الرغم من المعارضة الكلامية الظاهرة . فالمرأة المصرية قد غيرت زيتها في سكون وشجاعة . قوافقها الرجال دون جدال . هذا يدلني على أن مصر تتحرك بالفعل وتسير ، وإن كانت لا تزال تسير مفتونة بالكلام والمناقشة أثناء السير . نعم كل هذا يثبت عقيدتي أنه لن يأتي عام ١٩٥٠ حتى تكون مصر متحدة مع العالم المتحضر في زيه الكامل المعروف . تلبية لنداء التطور الطبيعي للأشياء .

المعنى الانساني لوحدة الزى

مرة أخرى أناقش الحجة الوحيدة القائمة في جانب « الطربوش »
وهي كلمة « الشعار الوطني » وأغلب المصريين مفتنون بهذه الكلمة
وأغلب المصريين مازال يعتقد أن من المفاخر أن يتميز بلباس خاص ،
شعب صغير ، عن بقية شعوب الأرض القوية المتحضرة . وقليل من
المصريين يرى من المساخر أن يتمسك رجل أو رجلان بلباس أحمر
فاقع صارخ بين مئات وألوف من الرجال المحترمين المتحدين في زى
معروف . لقد لحظ بحق أحد المفكرين أثناء سياحة طويلة في آسيا
وإفريقيا : أن الشعوب المنحطة هي أكثر الشعوب تمسكا بتقاليد
الزى وأكثرها حبا في التمييز عن غيرها من الأمم بأردية صارخة
الألوان . وأزيد أنا على هذا المفكر بقولي إن فكرة التمييز
بشعار خاص ليست فقط فكرة « بربرية » في عصرنا الحاضر ، ولكنها
تدل كذلك على ضعف الإدراك في أمة من الأمم . فإن من علامات
الإدراك الضعيف عدم اتساع أفقه للأفكار الإنسانية ولا ريب
عندى الآن أن خوفا وترددنا في مسألة كمسألة الطربوش وتمشيق
الكثيرين بكلمة « القومية » سببه الوحيد أننا لم نزل في حالة (عزلة
ذهنية) لا أكثر ولا أقل . فنحن في الواقع لم نتصل حتى الآن بالعالم
المتحضر اتصالا يشعره بوجودنا ويشعرنا بأننا جزء منه . فنحن في
حقيقة الأمر شعب صغير لا وجود له حتى الآن على خريطة الفكر

الانسانى المتحضر، إنما نحن زراع وخدام وعبيد يعيشون على هامش الحضارة يخدمون المصالح المالية الأجنبية، التى قبضت على وادى النيل منذ عشرات من الأعوام . هذا كل دورنا الذى نلعبه حتى الساعة فنحن لم نقدم للعالم مايدله على مساهمتنا فى التقدم الانسانى . لأن الفكرة الانسانية نفسها بعيدة عن ذهنتنا . إنا لانفكر إلا فى أنفسنا وفى حياتنا الصغيرة وما يحيط بها من عوائد بالية ومعتقدات قديمة وتقاليد عتيقة . إن العالم المتحضر لا يهتم أن يعرف عنا شيئاً . لأننا ليس عندنا ما يستحق أن يعرفه العالم المتحضر، ولأننا لانفكر مطلقاً فى هذا العالم المتحضر . إنما نحن نعيش كفضيلة من الدواجن وكفى . وهو يسخرنا لحسابه تسخييراً مادياً وكفى إني لا أقول إن خلعتنا الطربوش سيأتى بالأعاجيب وسيغير هذا الموقف . كلا مطلقاً إنما أقول وأصر على القول إن مارأيت من اتجاه الناس نحو استنكار كل تغيير للبالي العتيق هذا الاستنكار العنيف وتكالب الناس حتى شباب الجيل الجديد مع الأسف الشديد على الاحتفاظ بروح (القبيلة) الجامد . كل هذا أدهشنى وأحزنتى ودانى على أن عقليتنا فى ذاتها لم تزل تميل إلى « العزلة الذهنية » وأن جرائم « البربرية » مازالت متأصلة فى نفوسنا، وأن أمامنا وقتاً طويلاً قبل أن نهضم الأفكار الانسانية فى ذاتها ونصبح أهلاً للانضمام إلى هيئة الأمم المتحضرة التى لاتتميز باختلاف الزى واللباس والتى اتجهت كلها إلى وحدة الزى إيدانا بوحدة الانسانية .

البعث

« — حوريس — انهض ، انهض يا أوزيريس !

أنا ولدك حوريس . . .

جئت أعيد إليك الحياة ،

جئت أجمع أعظامك ،

وأربط عضلاتك ،

وأصل أعضائك . . .

أنا حوريس الذى يكون أباه .

حوريس يعطيك عبونا لترى .

وآذاناً لتسمع ، وأقداماً لتسير ،

وسواعد لتعمل . . .

هاهى ذى أعضائك صحيحة ،

وجسدك ينمو ،

ودماؤك تدب فى عروقك .

إن لك دائماً قلبك الحقيقى ،

قلبك الماضى !

الميت — إنى حى ، إنى حى ! . .

« كتاب الموتى »

وحوريس ليس إلا الشباب ، يعيد الحياة إلى ماضيه الميت .
 نعم هو الشباب الذي يكون أباه الوطن . وقد أعطاه بالفعل عيونا
 يرى بها غابره العظيم في حريته وحاضره الذليل في قيود الغرباء ، وآذانا
 يسمع بها ضحكات السخرية من أفواه الجبناء الذين جاءوا يستغلون
 رقاذه ويستلبون خيراته . كما أعطاه أقداما يسير بها كي يثبت
 لهم أنه حي ، وسواعد يعمل بها على تشييد الصرح المهدوم . إن
 أعضاء الوطن صحيحة لم ينقص منها عضو . وها هو ذا جسده
 يتحرك وينمو ، والدم يجري في شراينه . والشباب على رأسه يصيح :
 « إن لك دائما قلبك الحقيقي . قلبك الماضي ! » ويخيل إلى أني
 أسمع الوطن من كل جانب يلبي النداء ويبسب الشباب الأبناء : « إني
 حي ، إني حي ! » إني دائما أو من بأن مصر لا يمكن أن تموت .
 لأن مصر منذ الأزل ظلت تعمل وتكد آلاف السنين لهدف
 واحد : مكافحة الموت ، ولقد فازت مصر ببغيتها . وكلما ظن الموت أنه
 انتصر ، قام حوريس من أبنائها يصيح : « انهض ، انهض أيها الوطن ! »
 إن لك قلبك ، قلبك الحقيقي دائما . . قلبك الماضي » ، وإذا الموت
 يتراجع أمام صوت مدوّ من أعماق الوطن :

« إني حي . إني حي ! »

دولة العميان ! ..

هل سمع أحد إحتي الآن عن اعمى لا تدرك
يده اليمنى ما تصنعه يده اليسرى ؟ ..

انها ليست على مثال تلك الدولة من العميان التي صورها الكاتب
الانجليزى « ويلز » فى احدى قصصه .. فدولته تسير على الاقل
تبعا لمنطق خاص .. وتجرى الحياة فيها على نهج متواضع عليه ..
أهلها لا يبصرون بعيونهم حقيقة .. ولكنهم استعاضوا عن العين
بحواس أخرى ، أظهرت لهم حقائق الوجود فى أشكال جديدة ،
وأنشأت لهم مجتمعا قائما على قواعد خاصة به .. قد ينكرها الغريب
عنهم ، ويعجب لها غير الخاضع لظروفهم .. وليكنها فى محيطهم هم
طبيعة صادقة معقولة .. تعهدتها يد الخبرة والعناية ، وأدزتها فى فلك
الأيام متسقة منتظمة مصقولة .. لا تلح فى بنائها ثغرة تنم عن عبث
أو فوضى أو خرق أو هوس .

أما دولتنا التي نتحدث عنها هنا فمختلفة كل الاختلاف ..
فالعمى فيها من نوع غير معروف .. وهل سمع أحد حتى الآن عن
أعمى لا تدرك يده اليمنى ما تصنعه يده اليسرى ؟ .. هذه العجيبة
قد وقعت .. ولم تقع مرة .. وليكنها تقع كثيرا .. وتكاد تكون
من الظواهر العادية التي تحدث فى كل يوم .. ولعل أكثرنا ما عاود

يعجب لحدوثها . . وهل دهش كثير من القراء وهم يطالعون خبر تلك المصلحة التي تملك قطعة من الارض مناصفة مع مصلحة أخرى فأجرت الاولى نصيبها لاحدى الشركات بسعر ٣١٥ جنيها للفدان بينما أجرت المصلحة الاخرى نصيبها لذات الشركة بسعر ٢٠ جنيها للفدان . . وظل الامر على ذلك عشر سنوات ، بلغت فيها خسارة الدولة ٤٠ ألف جنيه . . فلما سئلت المصلحة الاخيرة في الامر قالت إنها لم تكن تعرف أن المصلحة الاولى كانت تؤجر نصيبها بذلك السعر المرتفع ! . . وهاتان المصلحتان الشريكتان تابعتان لحكومة واحدة في دولة واحدة ؟ ! . . وليكنها دولة العميان التي لا تعرف فيها اليد اليمنى ما تصنعه اليد اليسرى ! . .

* * *

ومثل هذا كثير في هذه الدولة . . فبينما تندفع أفواج الطلاب في التعليم الثانوى تطلب أمكنة في بعض المدارس المزدحمة . . يهمس نظار بعض المدارس الاخرى قائلين إن لديهم مقسعا للطلبة وفرجا وأولئك لا يعرفون ، وهؤلاء لا يتكلمون . . والوزارة لا ترى هذا ولا ذاك .

وفي كل عام تطرق أبواب السكليات جيوش من الطلبة ، فتوصد دونها الابواب ، كأنها جيوش كلاب تهجم على طعام لاحق لها فيه . . وما من أحد يسأل نفسه ما مصير هؤلاء المطرودين . . وإذا

وإذا نجحنا في نفذ أيدينا منهم هذا العام ، فماذا نحن فاعلون بأضعافهم فيما يستقبل من أعوام ؟.. في دولة العميان لا حساب للغد ولا إدراك للزمن !..

وفي كل جهة من جهات الحكومة موظفون لهم عين المؤهلات ويقومون بعين العمل . . ولكنهم في هذه المصلحة يقبضون أجراً ملاءماً . . وفي مصلحة أخرى ينالون أجراً لا يسك الرmq . . فاذا أبدوا العجب لهذه الفوضى . . سمعوا ألفاظاً غريبة . . مثل « الكادر » و « التنسيق » . . وغير ذلك من هذيان العميان !..

وفي كل ناحية من نواحي الأيراد أناس يدفعون للدولة ضرائب وأناس لا يدفعون . . وربما كان الذي لا يدفع هو الأقدر على الأداء . . فإذا بحثنا في النسب والمقاييس التي يؤدي بمقتضاها الناس ضرائبهم وجدنا عجباً من التخبیط وضياح العدالة !.. فأیدی الدولة هنا لا تدرى في أى جيب توضع . . وإذا دخلت بالمصادفة في جيب من الجيوب لا تعرف كم تدع وكم تأخذ !..

ما العلاج لهذه العاهة المتمكنة في هذه الدولة ؟! تلك العاهة التي أدت إلى ثورة الطوائف وتخبیط النظم ؟!

لو كان الأمر بيدي لأشرت بصنع « عين » مهمتها أن تبصر هذه الدولة ، وأن تربط أعضائها بعضها ببعض . وأن ترى لها الطريق اليوم وفي المستقبل . ولنطلق على هذه العين إسماً من تلك الأسماء

المألوفة لدينا . فليكن اسمها مثلا : « وزير الخطط » أو « وزير المشروعات » أو وزير التناسق الحكومي ... لا تتبعه وزارة من هذه الوزارات المعروفة .. ولا يكون هو على رأس وزارة من النوع المعروف . ولكنه يوضع في مكان مستقل . . مع جلة من الخبراء والاختصاصيين يرسمون « خريطة دقيقة لاحتيز فيها ولا محاباة . . يوضع فيها كل موظف وكل فرد وكل عامل وكل ممول وكل منتج في مكانه الذي يكفل له الانصاف في الحقوق والواجبات . ويدرسون حاجة البلاد في كل مرافقها في حاضرها ومستقبلها . ويضعون الخطط الثابتة ويهيئون المشروعات للسنوات الخمس أو العشر . . في التعليم والرى والزراعة والتجارة والصناعة الخ . .

إن في تولى هيئة واحدة بحث هذه المشروعات جملة في دار واحدة أكبر ضمانا للتناسق والنظام . لأن كل هذه الفروع المختلفة في الظاهر مرتبط بعضها ببعض في الباطن .. لقد قيل ان فتح أبواب التعليم على مصاريعها في بعض السكليات لا يؤدي في مصر إلى خير لماذا ؟ لأن النشاط التجاري أو الصناعي الذي يستوعب في أوروبا أكثر الخريجين . متخلف في بلادنا عن النشاط العلمي النظري .

لا بد إذن من إيجاد نوع من التنسيق بين نشاطنا التعليمي ونشاطنا الاقتصادي . . وقل مثل ذلك في كثير من نواحي خططنا ومشروعاتنا التي تحتاج إلى دراستها جملة ، وتحت قيادة واحدة حتى لا

يؤدي البحث والتنفيذ إلى ذلك التخييط الذي نرى صدامه كل يوم
بين وزارة ووزارة ! ..

كارتقنا هي أن كل وزارة لا ترى في الوجود إلا نفسها .. فهي
تضع مشروعاتها مستقلة وقد عصبت رأسها بقناع . فلا ترى عينها
العمياء شيئاً .. ولا تلمس يدها إلا ورق ملفاتها هي ..
وسيمظل الحال هكذا طويلاً في دولة العميان . إلى أن نفطن
آخر الأمر إلى ضرورة إيجاد تلك « العين » التي تشرف من عل ...
على كل أمورنا جملة ببصر حاد نافذ خبير ! ..

في المرأة

المرأة والمجتمع

إنه ليدهشني حقاً أن بعض الشباب المثقف نادى يوماً
بفصل الجنسين في الجامعة المصرية ، في وقت أُنمر فيه نظام
الدراسة المتحددة وأخرج لنا فتيات حائزات على الليسانس
والماجستير والدكتوراه ، هن فخر مصر وهن أنصع دليل
على رقي مصر العقلي في الوقت الحاضر . إن القول بأن المرأة
للبيت لا لمزاحمة الرجل لا يحول مطلقاً دون تثقيف المرأة
تثقيفاً تاماً لتكون زينة البيت وأستاذ الطفل ومعلم الجيل .
إن المرأة ليست قطعة من أثاث البيت توضع فيه بجهلها وعقلها
المغلق . وهي ليست خادماً تطعم الرجل وتغسل له ملابسه ،
ولكنها شريك محترم ينبغي أن يجد فيه الرجل متعة عقلية تحجب
إليه البيت .

أما شبيح رجالنا طول الأجيال الماضية جلوساً في القهوات
والحانات يأنس بعضهم ببعض ، هاربين من وحشة المنزل
الذي لا يحوى غير نساء كالخادومات ؟ نعم . إن المرأة

للبيت . ولكنها لكي تكون بحق ملكة البيت وقرّة عينه يجب أن تتثقف أكمل ثقافة . إن من النساء في صدر الاسلام من فقه الرجال في فنون الشعر والأدب والعلم والجدل . وقد كان لبعضهن مجالس مشهورة يحضرها رجال الدولة ونوابغ الشعراء والأدباء والمغنين . وكان ذلك في عصر لم تزاحم فيه المرأة الرجل في المناصب والأعمال . كذلك فلنقل عن ثقافة المرأة الأوروبية يوم كانت صالوناتها تضم أعظم العباقرة دون أن تخرج المرأة وقتئذ من أجل ذلك عن وظيفتها فتزاحم الرجل في أسباب معاشه . لا ينبغي إذن أن نخلط بين أمر تثقيف المرأة وبين أمر وظيفتها . إن المرأة زهرة البيت وروحه ، بل زهرة المجتمع وروحه ، كلنا في ذلك متفقون ، فلنجعلها إذن زهرة . وهل نعرف زهرة أينعت دون أن تتعرض قليلاً للشمس والهواء ؟ ! فلنحاذر كل الحذر من حبس المرأة . فإن في ذلك حبساً لعقلها وموتاً لشخصيتها . ولنذكر أننا إلى اليوم ندفع غالباً نمن سجن المرأة المصرية في الماضي . فهي كلما دعتها الظروف إلى مواجهة الحياة والمجتمع اهتزت قدمها ضعفاً واحمر وجهها حياءً وتلعثمت وتعثرت في هزالها النفسي والفكري وظهرت بمظهر يدعو إلى الرثاء والاشفاق ، وبدت للأعين أقرب إلى الخدامات المحجوبات منها إلى سيدة مهذبة قوية بشخصيتها وتجاريبها واثقة من نفسها ومن احترام الناس لها . كل هذا حدث لأن المرأة في مصر ذبل عقلها من طول

السجن ولم تعتد مواجهة المجتمع منذ الصغر . إن إقصاء المرأة عن مجتمعنا كما يقصى الحيوان الحقير جريمة فظيعة ، هي القتل المعنوي بعينه لا أكثر ولا أقل ، وهي الامتهان لكرامتها ولأدميتها امتهاً لا يجب عليها أن تشور من أجله وأن تقيم الدنيا وتقعدها ولا تسكت عنه كما سكنت فيما مضى من أجيال . فان المسألة مسألة حياتها أو موتها . وإن الذين يريدون قتلها باسم الدين ، والدين برىء ، لا يدركون أنهم بذلك إنما يقتلون أنفسهم بأيديهم .

إن عقل المرأة إذا ذبل ومات فقد ذبل عقل الأمة كلها ومات .

المرأة والفن

إني إذ أتكلم عن الفن لا يسعني إلا أن أعترف مرغماً أن المرأة هي روح الفن ، ولو لم توجد المرأة على هذه الأرض فربما وجد العلم ، لكن المحقق أنه ما كان يوجد الفن ، ذلك أن الإلهام الفني هو نفسه قد خلق على صورة امرأة ، وأن لكل لون من ألوان الفن عروسا هي التي تنثر أزهاره على الناس . مامن فنان على هذه الأرض أبدع شيئا إلا في ظل امرأة ، وهذا القول مني غريب ، ولأبادر بتوضيح قصدي حتى لا يقال إني رجعت إلى فضيلة الحق ، أعني الحق الذي تراه المرأة ، كلا إني لم أرجع إلى هذه الفضيلة بعد . وكل ما في المسألة أنني دائما أفرق بين المرأة كشيء يوحى بالجمال ، وبين المرأة كمخلوق يريد أن يستأثر بكل شيء في حياتنا . إن عداوتي لهذا المخلوق لن تنقطع مادمت أخشى منه . إن عداوتي ليست إلا دفاعا عن نفسي . فلو أن المرأة تمثال من الفضة فوق مكتبتي ، أو باقة من الزهر في حجرتي ، أو اسطوانة موسيقية أنطقها وأسكتها بإرادتي ، لما كان لها عندي غير تقديس وإكبار لا يحدهما حد . ولكنها للأسف شيء يتكلم ويتحرك وهي أحيانا كالطفل يلقي من النافذة كل شيء ثمين ويجلس على حافتها يضحك ضحكة الانتصار . على أن الإنصاف يقتضي أن أقول إن المرأة إذ تحطم من جانب فهي تبنى من جانب . إنها كالطبيعة

فى يديها العبقريتان : عبقرية الفناء وعبقرية البناء ، وإنه لمن المستحيل أن نرى فى التاريخ حضارة قامت بدونها ولا انحطت بدونها ، وإن عرشها فى مملكة الفن أظهر العروش . إننى أستطيع أن أقول على سبيل المثال إن أجمل الفن الرومانتيكى الفرنسى إنما نبع تحت أقدام « مدام ريكاميه » وإن صالونات السيدات فى أوروبا ، ومجالس الشعر والغناء فى الشرق عند العرب هى التى أخرجت أجمل ما فى الغرب والشرق من شعر وآداب وفنون . ولا أستطيع أن أضرب هنا الأمثلة ، ولكن من يفتح أى كتاب من كتب العرب القديمة يرى وصف تلك المجالس التى كانت تنصدها نساء كالشموس ، وتضم فحول الشعراء والمغنين ويقرأ تلك الأخبار التى لاتنتهى عن ذكر الجوارى المثقفات والنساء الشريفات اللاتى كن ينظمن فى السر والعلن ، تلك المجالس التى فيها نظم أجمل الشعر ، وتفتحت أزاهير أنبغ القرائح ، ولعلية أخت هارون الرشيد ذوق فى فنون الشعر والغناء أثر فىمن حولها من كبار الفنانين والشعراء . ولماذا دى بومبا دور أبرز يد فى حركة الفكر والفن فى عصرها . ففى الغرب هى المرأة ، وفى الشرق هى المرأة ، حيثما وجدت المرأة صاحبة الذوق وجد فى الحال الفن ونهض الفكر ، وقامت الحضارة . إذا قيل إن مصر الحديثة لم تربع دفنا ناهضا ، ومن ثم لم تبدا أمام العالم بعد فى ثوب الأمة المتحضرة ، فإن السبب الوحيد أن المرأة المصرية ذات الذوق والروح مازالت فى مصر نادرة الوجود ، إن اليوم

الذي تعنى فيه المصرية باقتناء « لوحة زيتية » صغيرة أو « اسكيس » بسيط يتم عن ذوق تزين به جدار منزلها هو اليوم الذي يزهر فيه عندنا التصوير . واليوم الذي تهتم فيه المصرية بشراء نسخة من كل كتاب جديد للمؤلف الذي تفضله وتجلده هذه النسخة وتعرضها عرضاً جميلاً ، وتتحدث عما فيها من كلام وأفكار في مجالسها ، هو اليوم الذي يرقى فيه عندنا الفكر والأدب ، وإن اليوم الذي توجد فيه المرأة العظيمة التي تكرر بعض هممها لا يقاظ همم الفنانين وتنشيط الحركة الفكرية هو اليوم الذي تقترب فيه من المدنية الحقيقية . نحن في حاجة إلى « البيت المصري » الذي تنمو فيه كل ملكات الطفل الجميلة . إن الطفل الأوروبي منذ اليوم الأول الذي يستقبل النور فيه لا ينام إلا على غناء جميل ، وما يمضي قليل حتى تقوده أمه في عربة صغيرة إلى الحدائق ، فلا يقع نظره الهادي . الإلهي ، في غير وعى ولا إدراك ، إلا على الطبيعة الجميلة ، بسماؤها وجنانها ، وجداولها . وما يكاد يعي ويدرك بعض الإدراك حتى توضع في يديه كتب لا كتابة فيها ولا كلام ، بل صور جميلة ملونة للحيوانات والطيور والمخلوقات ، والطبيعة في مظاهرها الوضاعة الساحرة ، فيحس جمال الرسم قبل أن يفقه معنى كلمة « الرسم » ويضطرب لتناسق النغم قبل أن يعرف ماهو الغناء ، ويشعر يتناسب الأوضاع وتجاوب الألوان فيما يحيط به من مظاهر الخليقة ، ولما يعلم الكلمات والألفاظ التي يعبر بها عن كل هذه المشاعر ،

فهو قد أدرك وجوه الجمال عن طريق الاحساس، فلا ينقصه بعدئذ إلا إدراكه عن طريق العقل والمنطق وهو عمل المدرسة والكتب . على أن مجرد الشعور بوجود الجمال في المخلوقات والأشياء طفرة كبرى في التكوين الروحي للطفل . فما الجمال إلا المظهر الخارجى والثوب البادى للنواميس العليا ، ففي إدراك وجوده إدراك خفى مبهم لعظمة تلك القوانين التي تنظم الوجود ، وهذا الإدراك هو كل شرف الانسان وفضله وهو وحده الذي يميز الانسان عن سائر الحيوان ، فلو شعرت الحيوانات يوماً بالجمال لما لبثت حيوانات دقيقة واحدة . إن أظهر عيب في المصرية الآن هو افتقارها إلى الذوق ، أى الاحساس بالجمال في الأشياء . كم من المصريات تعتبر الازهار في بينها ضرورة كضرورة الطعام والشراب ؟ . . . إذا وصلت المصرية إلى هذه الدرجة من الحس المرهف ، وبلغت في دقة مشاعرها حداً لا تستطيع معه أن تستغنى في حياتها اليومية عن الجمال في الالوان والاصوات والافكار ، فلقد حق لنا أن نصيح فرحين مهللين بحق : إن مصر لا تقل رقياً عن أرقى الدول حضارة» وهذه المرأة المصرية ذات الذوق الرفيع والروح المهذب ، الدقيقة الاحساس بكل ما هو جميل ، هي نفسها التي تخلق الفنان وتوحى إليه ، لأنها لا تستطيع أن تكون بمعزل عن أولئك الذين يصنعون الجمال . إنها ستهتم بأمره وتواليه بالتشجيع ولا تتركه يفترى حتى تستثير خياله ، فللمرأة يجب أن تعلم أن « الفنان » ليس إلا قيامة ، وأن أناملها الرقيقة وحدها هي التي تستطيع أن تخرج منه أجمل الانعام .

المرأة والفنان

الفنان الحقيقي هو ذلك الرجل العجيب الذى تزوج « الفن » ،
فهل مثل هذا الإنسان يستطيع أن يتزوج أيضاً « المرأة » ؟ هذا امر اختلفت
فيه الآراء . . . ورأى الشخصى أن هذا مستطاع ، لو أدركت المرأة أن
حياتها مع هذا الإنسان لا ينبغي أن تشابه أى حياة أخرى ، وأن
حياتها ستبذل بلائمن لرجل بذل حياته هو أيضاً بلائمن ! .
نعم ، يجب أن تفهم امرأة الفنان أن كل حياتها ينبغي أن
تقدم لزوجها الفنان ، وأن كل رسالتها فى الحياة أن تسكفل لزوجها
الحياة الهنيئة الجميلة التى فى كنفها يفتج ويخلق . زوجة الفنان هى
تلك التى تعنى بزوجها ولا تطالب زوجها أن يعنى بها .
هى التى تزيل متاعب زوجها ، ولا تنتظر من زوجها أن يزيل متاعبها .
هى التى تتلقى من زوجها همومه ولا تخبره مطلقاً بهومها . . . هى ذلك
المخلوق الذى يعيش صامتاً صابراً باسماً بجوار الفنان طول العمر ، دون
أن يشعره لحظة واحدة بوقر هذا الجوار ، هى التى تقف إلى جانبه دائماً
دون أن يفتن إلى أنها موجودة . إن الزوجة التى تستطيع أن تعيش مع
« الفنان » هى بالاختصار تلك التى لها رسالة وعقيدة ، هى التى
تستحق بصبرها وتضحياتها أن يقرن التاريخ اسمها باسمه . هى التى
تضع فى قلبها هذه الكلمة : « إنما يعيش الفنان من أجل الفن
وتعيش هى من أجل الفنان » .

المرأة وأشوا کہا

كثيراً ما يخلط الناس في أمر نظرتي وعلاقتي بالمرأة، وإنهم
ليتهمونني أحياناً بالتناقض، إذ يرون أنني أحمل عليها مرة، وأشيد
بذكراها أخرى. والحقيقة أنني في كلا الحالين أعتقد ما أقول.

فالمرأة من غير شك هي الزهرة المشرقة في بستان وجودنا الأدبي،
زهرة لها نضارتها وعبيرها، لكن لها أيضاً أشوا کہا.

جمال المرأة وفتنتها: تلك هي في نظري أشوا کہا الحقيقية التي
تضع فيها كل سموم سلطاتها وسطوتها. فالمرأة إنما تشهر علينا نحن
الرجال هذا السلاح، وتقف به في وجه أعمالنا، أمرة فينا وناهية،
صائحة بنا أحياناً أن نقف في طريقنا كما تقف القافلة تحت تهديد
قطاع الطريق، لتأخذ منا كل ما عندنا من وقت، وقلب، ومال،
وجاه، وشهرة. إنها لتجردنا من كل شيء، وتتركنا عراة تحت
سلطان سلاحها المسلط الخفيف!

لعلها تتهمني بالمبالغة، ولكن هل تستطيع امرأة أن تقول لي
إن هنالك امرأة في الوجود تعيش لغرض آخر غير سلب الرجل!
إنك إذ فتحت رأس امرأة لما وجدت فيه غير هذه الغاية. السطو
على رجل!

إن الرجل قد يعيش لعمله، أولفكرته، ولكن فكرة المرأة

وعملها هو البحث عن الرجل الذى تسلبه لحظاته وكل حياته . فاذا نظرت المرأة إلى رجل مشهور فأنما تنظر اليه بفكرة واحدة : أن هذه الشهرة لها . وإذا كان غنياً فللمال لها ، وإذا كان لبقاً فظريفاً فكل ذلك لسرورها ولخدمتها !

لست أتكلم بالطبع هنا عن المرأة المجردة من السلاح ، ولكنى أتكلم عن المرأة ذات الأشواك ، المرأة المدججة « بسلاح » الفتنة والجمال . وهما هو ذا تاريخ البشرية أمامنا . أين هى المرأة الجميلة التى لم تستخدم جمالها فى إخضاع الرجل ؟ كم امرأة فى التاريخ جعلت جمالها فى خدمة « غاية اسمى » من إخضاع الرجل ؟ إن المرأة ليست لها الشجاعة أن تنكس سلاح جمالها فى وجه الرجل . إن المرأة مخلوق « غير سامى » ، متى وجد فى يدها سلاح تحركت فيها غريزة السطو والحرب . إن المرأة الجميلة هى عدو الرجل المفكر .

المرأة والعظمة

سألتني إحدى المجلات عن النساء العظيمات في مصر اليوم .
فذكرت أربعاً تصلح كل واحدة منهن أن تمثل ناحية من نواحي
العظمة في المرأة : الأولى والثانية معروفتان . والثالثة والرابعة مجهولتان
الأولى والثانية رمز لعظمة المرأة الشرقية في المحيط العام . والثالثة
والرابعة رمز تلك العظمة في المحيط الخاص .

الأولى تلك التي شاركت زوجها العظيم في قيادة حركة تحرير
البلاد . وتعرضت معه لكل الأخطار وقالت له في شجاعة يوم علمت
أن الشجاعة قد تكلفه الحياة : « امض في طريق الجهاد وأنا معك »
وحملت عنه وهو في منفاه لواء الثورة ، وقاسمته إلى وفاته بيض الأيام وسودها .
ثم بقيت وحدها بعده رمز الأمة المتحدة ، لا تميل إلى يمين ولا إلى شمال
وتعصف حول أقدامها عواصف الحزبية وهي ثابتة شامخة كأنها
« الوحدة القومية » صبت في تمثال . إنها بقيت جديرة بزوجها في حياته
ومماته . بل إنها بقيت تذكرنا ببعض معاني العظمة في وقت نسبت
فيه كلمة العظمة في ميادين السياسة القومية .

الثانية — تلك التي قادت حركة تحرير المرأة في مصر والشرق
وجاهدت جهاداً متصلاً في سبيل الرقي بمستوى المرأة المصرية الاجتماعية
وبذات جهدها ومالها ووقتها في إقامة المنشآت العامة التي تنفع الفتاة

والمرأة . ولقد خالفت هذه الزعيمة في بعض الآراء . لكن مهما يكن من أمر خلافتنا في الوسائل والتفاصيل فإني متفق معها في الغاية النبيلة والغرض الأسمى . وهو رقي المرأة المصرية والشرقية . من أجل ذلك لا يسعني إلا أن أعترف بعظمة هذه السيدة التي تكرر حياتها لمثل هذا الهدف العظيم وأرجو مخلصاً أن تنجح في رسالتها وأن ينصفها التاريخ ، الذي هو لاشك مثبتها على كل حال في سجل العظيمات .

الثالثة — تلك التي لا يعترف بعظمتها سوى . لأنها مجهولة كالجندي المجهول . وهي مثله تمثل فئة تجاهد في الظلام جهاد الأبطال . فقد أتاحت لي الظروف أن أعرفها وأراها عن قرب . رأيته وهي تهذب أطفالها وتنشئهم على حب المثل العليا . لقد كانت تجمعهم كل ليلة عقب العشاء لتقص عليهم قصصاً لذيذاً مما تطلعه أثناء فراغها ، تختاره من بين ذلك النوع الممتلئ بالبطولة الخلقية والفضائل الانسانية ، ولم يكن أطفالها وحدهم هم الذين يلذ لهم هذا القصص بل زوجها أيضاً الذي كان يبكر في العودة حاملاً الحلوى ليصفي إليها مع الأطفال . لقد كانت هذه السيدة إلهة ذلك البيت بالمعنى العظيم لتلك السكامة . ولقد كانت المعينة لزوجها في كل شيء الناصحة له في كل أمر . إذا شذ يوماً عن فصيحها ضل . لقد تحملت معه قسوة الحياة منذ اليوم الأول وذاقت معه مر الكأس وكان نصيبها أكثر من نصيبه . أما حلوها فما كانت تسمح لنفسها إلا بالآقل . وكانت ذكية قوية الإرادة تتقن كل عمل

وتحب أن تحقق كل شيء يقع في محيط حياتها . لقد أدارت بينهاخير إدارة ، بل أدارت مزرعة زوجها خيراً منه يوم اضطرتها الظروف إلى هذا العمل . ولقد شاهدت أولادها يشبون على مبادئ الخلق القويم والرجولة الكاملة التي غرستها فيهم . ورأت زوجها يختم حياته السعيدة لافظاً اسمها مع النفس الأخيرة ، فعلمت أنها أدت واجبها كزوجة صالحة وأم مثلى . من هي هذه السيدة ؟ ذلك لا يهمنا ولا يهمها . فحسبنا أن نعرف أنها امرأة عرفت واجبها وأدته على الوجه الأكمل . وهذا ليس بالشيء القليل على هذه الأرض . وهذا وحده يكفي أن نتحنى لها احتراماً كما نتحنى أمام تمثال الجندي المجهول . ذلك البطل المستتر رمز البطولة المستورة التي لا تقل شأنًا عن البطولة المشهورة .

الرابعة — تلك التي .. تريد زوجاً لا كأغلب الرجال . بل رجلاً ذا رسالة عامة شاقّة يكافح في سبيل أدائها معرضاً حياته للنجاح والفشل وللسلامة والخطر رجلاً يعيش بمنزل عليها يرجو أن يغير بها طريق الناس والإسانية ، لماذا تريد أن تقرن حياتها بحياة هذا الرجل ؟ لأنها تريد أن تكرس نفسها لهدف عظيم . إنها إذن عظيمة النفس : إنى أتصور ما تستطيع أن تصنع لزوجها مثل هذه المرأة ؟ إنها ستسهر عليه كما تسهر العيون اليقظة على المصباح المضيء ، تحرص على استمرار نأله وتسمح عنه الدخان وتملؤه بالزيت من حين إلى حين

المرأة والحرية

من بين الاساطير الهندية ، أسطورة معروفة في كل مكان . . خلاصتها أن الاله « تفاشترى » عندما خلق الدنيا . . تناول في يده العناصر كلها ، وصنع منها الشمس والقمر والنجوم والجبال والرياح والبحار والاشجار والحيوان . . وأخيرا الانسان . . في صورة الرجل الاول . . وجاء ذلك الرجل شاملا لكل العناصر مستنفدا لها جميعها . . فلما أراد الله . بعدئذ ان يخلق المرأة لم يربدا من أن يستعير لها صفات غيرها من الكائنات . . فأخذ لها من الشمس ضياءها ومن القمر استدارته ، ومن النجوم بريقها ، ومن الجبال عنادها ومن الرياح ثقلها ، ومن البحار ميوعتها ، ومن الاغصان مرونتها ومن الندى دموعه ، ومن الورق خفته ، ومن الياقوت وداعته ، ومن النمر قسوته ، ومن الطاووس خيلاه ، ومن النار حرارتها ، ومن الجليد برودته عجن الاله كل هذه الصفات وصنع من تلك العجينة ذلك المخلوق الذي يسمى « المرأة » وقدمه الى الرجل . . هدية تؤنسه وتسره وتسعده ، فتقبلها الرجل شاكرا . . ولكن لم يمض قليل . . حتى رأى الاله ذلك الرجل يأتي اليه شاكيا :

— خذ هديتك ! انه سلطان طاغ . . انه مخلوق لا منطق له . . انه يسير في اتجاهات مختلفة . . وطرق متعارضة . . ما يحبه اليوم

يكرهه غدا ، ومارفعه أمس خفضه اليوم من اين جئت به ؟ وكيف صنعته ؟ كل المتناقضات فيه .. كأنه ثوب مرقع .. فيه من كل لون قطعة ! ومن كل مادة بضعة !

فقال الاله :

— وما الذى يزعجك من تناقضه وتقلبه .. مادمت أنت المالك لزماءه ؟

فقال الرجل :

— من قال انى المالك للزمام ! لقد قال لى حقاً انه جاء لخدمتى ولمصاحتى ولهنائى ولرفعتى .. ولكن .. ما ان استقر فى حياتى حتى غدا هو كالسلطه الطاغية فى الشعب الضعيف !

فقال الاله :

— هذا ليس من حقه .

فقال الرجل :

هذا هو الذى حدث .. إنه لم ينثر على حياتى رغداً ولا نعيماً ولا هناء ولا رخاء .. فهو الاثره بعينها . والانا نية قائمة على قدمين .. تجردنى مما عندى لتمتلىء هى وتمتفخ ، إن هذا المخلوق قد ساءبنى ما معى ولم يعطى شيئاً ..

فقال الاله :

— وكيف تركته يفعل ؟ !

فقال الرجل :

لست أدري .. لقد خدر إرادتي . واستغل لحظات ضعفي واغتر
 بـاخلاصى وحبى فجعل يتصرف فى أمرى ومالى تصرف المالك فى عبده .
 وليته أحسن التصرف .. لقد استبد برأيه فلم يعد يحفل بالاصفاء الى
 أو يأبه بالتماس المشورة عندى !
 فقال الإله :

— وماذا تريد منى الآن ؟ .

فقال الرجل :

— حريقى .. إعطى حريقى . وخذ هديتك .. الطاغية ! ..

فقال الإله :

— لست أنا الذى سلمتك حريقك .. حتى أردتها عليك ! .

أنت الذى قدمتها بمطلق اختيارك الى هذا المخلوق .. الذى تسميه
 طاغية ! . إنى لم أجد لك أضعف منه لا منحك إياه .. مخلوق ، كما اعترفت
 أنت ، لا عقل له ولا منطق ، لا يدري ما يفعل اليوم ولا ما يتجه اليه غدا
 أعطيته لك .. لنحكاه لا ليحككم .. ولتوجهه لا ليوجهك ..
 ولتأخذ منه هناءك ، لا ليأخذ منك دماءك ! .. ماداخلى أنا إذن
 إذا كان العكس هو الذى حدث ؟ ! . ثق أنى لن أجد لك أضعف منه
 حاكما لك ...

قال الرجل :

— وماذا اصنع الآن ؟ ...

فقال الاله :

— كافح ! كن رجلا . انى اذكر يوم خلقتك رجلا ، انى جعلت لك قوة وجلدا ! . . .

قال الرجل :

— الاتخلصنى من هذا المخلوق ؟ . . .

قال الاله :

— اخلصك منه . . على شرط . أن اخلصك فى نفس الوقت من قوتك ! . .

— قوتى ؟ ! .

— نعم . . قوتك التى آثرتك بها وميزتك . . . انى ما أعطيتك القوة عبثا . . . إنما أعطيتك القوة لتكافح بها فى سبيل إراداتك ! . . وما دامت لك ارادة ، فلن يسلبك طاغية حريتك ! . . .

* * *

واختفى صوت الاله خلف السحب . . وترك الرجل وحيدا . . يفكر ويردد :

— إرادتى ! .

ثم ثاب إلى رشده أخيرا . . فانطلق الى بيته لايلى على شىء . . وقد دبر فى نفسه أمرا . . فما أن بلغ أعتاب الدار ، حتى رأى ذلك المخلوق الضعيف المتعجرف . . واقفا وقفه الزهو . . وقد عقد على رأسه

الفارغ من العقل ، تاجا من زهر . . وهو يتأهب للصياح بلمهجة الأمر . .
فاقترب منه الرجل ، وأمسك بشعره الطويل الفاحم ، وجز منه بسكين
خصلات . . فتل منها جبلا . . أوثق به يديه . .

ثم قال :

— الآن أيها السلطان الطاغى لن تأخذ مني حريقى ! .

المرأة والبيت

سألتني كذلك إحدى المجلات عن رأيي في الفتاة المصرية الحديثة وفهمها لرسالتها نحو « البيت » . فأبديت خوفاً شديداً من أن يؤدي تيار الحياة المصرية إلى جرف المرأة المصرية بعيداً عن واجبها الاسمي . فالفتاة اليوم أمام هيكلين هائلين يؤثران في عقليتها الناشئة ويجري تفكيرها الحديث : دور السينما ودور الجامعات ، وإني لأخشى أن أقول إن الفتاة في مصر اليوم إذا فقدت الاتزان واندفعت بكل روحها إلى أحد هذين الهيكلين فلا مناص لها من أن تكون إحدى اثنتين :

الأولى — تلك التي تخرجت بنجاح من دور السينما والملاهي وخذقت تقليد ممثلات هليوود ورأت كلوديت كولبير تصفع زوجها في الرواية على خده الأسيل فيمسح مكان الصفع بالمنديل وراحت تراقص هذا وذاك وتجلس على مقعد « البار » العالي وتتمدد عارية على أديم الرمال ولا تعرف من شؤون الدنيا والآخرة غير الكلام في الجاذبية وقلة الجاذبية التي عند الرجال ولا تدرك أن عليها زوجها واجبات ، فهي ليست مسئولة عن بيت ولا مطبخ ولا أولاد لأن هذا من عمل الخدم والمربيات . أما هي فوظيفتها في الصباح الطواف بحوانيت الزينة والثياب والذهاب إلى الخياطات وفي الظهر استقبال زوجها بالطلبات ، وفي العصر التعلق

برقبته ليخرج بها إلى النزهة أو يدعها تذهب إلى (زوزو) و
 (شوشو) و (موشو) للعب (البريدج) و (الكونكان) .
 أظن مثل هذه المرأة توافقني على أن الرجل المحترم المسئول هو
 آخر من يفكر في قبول مثل هذه المرأة شريكة محترماً
 يسير إلى جانبه في طريق حياة جديده قد تكون عظيمة الأثر في
 تاريخ بلاده .

أما النوع الثاني من المرأة فهو نوع تخرج بنجاح من المدارس
 والجامعات فحنق تقليد الرجل في جهله بشئون البيت ، و معرفته
 بآراء أفلاطون وأبي العلاء ، نوع من حائزات البكالوريات أو
 الدبلومات اللاتي قد يصلحن للتدريس أو التوظيف ولكنهن لا
 يصلحن زوجات ، نساء يعرفن أفلاطون ولا يعرفن كيف
 تقلى بيضة فاذا مرض الطبيب أو خرج تغدى الزوج المحترم بزبدة
 أفكار أفلاطون .

أما خريجات المدارس الأجنبية ممن تعلمن قشور اللغة الفرنسية
 أو الانجليزية ومبادئ البيانو فانهن عرائس جوفاء صنعت في
 حوانيت (الميردي ديو) أو (الدام دي سيمون) لتوضع مع
 جهاز العرس في بيت زوج مسكين كتب عليه أن ينكح بحمل
 هذه الدمية المتحركة الناطقة (بمون شير) و (ماشيري) من حيث
 أراد معينا يعينه على حمل متاعب الحياة .

وكلنا المرأتين لم تفهم مما تعلمته فى هذه المدارس المختلفة غير شىء واحد : حقها المطلق فى السيطرة على الرجل وإخضاعه وعدم طاعته وجعله خادماً لمطالبها نازلاً على إرادتها واعتبار أى حق له قبلها تأخراً يقابل منها بالاحتجاج والازدراء . هذا حادث فى مصر بالفعل الآن . أما فى أوروبا حيث عرفت المرأة كيف تصل إلى الاتزان المطلوب فيها كم ما تقوله زوجة فاضلة فى إحدى القصص الفرنسية الشهيرة قرأتها أخيراً بالمصادفة : (منذ الأيام الأولى لزوجى رسمت لنفسى خط سير محدد : هو أن أسمع وأعمل كل ما يريد زوجى ولم أنحر ف أبداً عن هذا المبدأ ولقد وجدت نفسى بذلك على خير حال إذ بفضل ذلك جعل زوجى يسمع ويعمل كل ما أريد . هنا سر سعادتى وهى كما ترى قائمة على هذا المبدأ البسيط فلتفعل الزوجة ما يعجب زوجها يفعل هو ما يعجبها .)

هل يستطيع أحد أن يعدد لى كثيراً من الزوجات عندنا اليوم يسرن على مثل هذا المبدأ البسيط !!

إنى أعتقد أن الزوجة الصالحة هى تلك التى تستطيع مشاركة زوجها فى سيره الطويل الشاق فى طريق الحياة ، وأن تعينه حقيقة أصدق المعاونة على احتمال مناعب السير وأن تخفف عنه قسطاً وافراً من أعباء الحياة اليومية .

لكم أثرت فى نفسى صورة أخيرة المستر تشرشل وهو يمشى

إلى جوار زوجته متزهين في إحدى الطرق . كل ما في تلك الصورة يدل على أن هذين الزوجين قد قطعاً معا على هذا النحو طريق الحياة بما فيه من هناء وشقاء . كذلك أثرت في نفسى كلمة إهداء صدر بها أحد كبار رجال السياسة في فرنسا كتاباً له ختم به حياة كلها كفاح : « إلى زوجتى التى تشاركنى أيامى البيض وأيامى السود » فألى أن تكثر فى مصر والشرق مثل هذه الشريكة لن نجد بدثرة رجالاً عظاماً يهتمون السير فى طريق الجهاد والمجد حتى النهاية

سليقة المرأة

أذكر أن فتاة مثقفة سألتني ذات يوم عن رأيي في اشتغالها بالصحافة .. وهل هذا العمل يناسب طبيعتها باعتبارها امرأة ؟ .. فقلت لها : ثقي أن المرأة مخبرة صحفية بالفطرة ... سواء التحقت بجريدة أو التحقت ببيتها ... لقد كان « آدم » في الجنة هادئا وادعا ساكنا لا يفكر في شيء ولا يصل إلى عالمه أمر .. فمن الذي جاءه بالخبر الأول في تاريخ الاخبار ؟ .. وأعني به اقتراح إبليس أكل الفاكهة المحرمة ؟ .. أليست هي « حواء » التي نقلت الى آدم هذا الخبر الهام ؟ !

من الذي كان يسمع من « الحية » الكلام ، ويجري معها « الاحاديث » ويستقي منها الاخبار ويفضي بها الى آدم ؟ .. أليست هي حواء ؟ .. اني أعتقد أن هذه الحادثة هي أول عمل صحفي منذ بدء الخليفة . وبهذا تكون « حواء » هي أول صحفية مخبرة ظهرت في السكون ، قبل أن تخطر فكرة الصحافة على بال مخلوق ...

ان الصحافة في دم المرأة .. وهي عندما لا تجد خيرا تنقله أو شخصا تستجوبه ، تعتمد إلى زوجها فتقضي اليه بكل ما سمعت في يومها وما رأت في نهارها .. أما اذا كان الزوج هو القادم عليها من الخارج فإنها تستقبله بالسؤال تلو السؤال : أين كنت ؟ ومـع من كنت

وفيم كنتم تتحدثون؟ . والويل له اذا تهرب من الاجابة متذرعاً بالتعب
 أوراجياتا جيل الحديث ، أو مؤكداً أنه لم يقابل أحدا ذا أهمية ، ولم
 يصادف شيئا ذا بال . . فإنها عندئذ تعامله كما لو كان وزيرا خطيرا
 يخفى عنها عامدا أسرار أزمه دولية . . فهي تضيق عليه الخناق . .
 وتحاوره وتداوره بكل حذق وبراعة ؛ فإذا أكد لها وأقسم أنه ليس
 عنده ما يستحق الكلام ، صاحت به أهذا معقول ؛ كل هذا الوقت
 في الخارج وليس عندك ما تقول ؟ . . وتظل به تستحشبه حتى يضطر
 المسكين الى أن يلفق لها خبرا لم يقع . . واسكنها بسليقتها تدرك أن
 ما قال ليس له نصيب من الصحة . فتبتسم وتسكت متظاهرة بالاصغاء
 الى أن يتورط في سلسلة من الاكاذيب والمتناقضات ، فتمسك به
 متلبسا بالاكذوبه . . فيعترف . . وهنا تقول له :

— لن أصدقك بعد اليوم . . كل أخبارك كاذبة ! . .

— ومن قال لك أن تمخذينى مصدرا للاخبار ؟ . .

— لماذا تخترع ؟ . . لماذا لاتقول الحقيقة ؟ . .

لأنه لاتوجد حقيقة . . لا يوجد شيء على الإطلاق . . وأنت

مصممه على أن تنتزعى منى خبرا بأى طريقة . . .

— أريد خبرا صحيحا لا مخترعا !

لا يوجد . . قلت لك لا يوجد . . ليس عندى اليوم خبر صحيح . .

لم يبق الا أن أخترع . . . والا فلاسكت سكوتا مطبقا . . . واياك أن

تسألنى شيئاً أبداً ..

— اذن أخترع .. هذا على كل حال خير من لاشىء ..

نعم .. ان الصحافه الاخبارية ميراث المرأة عن جدتها حواء ..
فلتهبط ميدانها اذا شاءت ، ولتنقل من الاخبار ما أرادت ، ولتستق
من المصادر ما وجدت .. ولن يعوزها اليوم أيضاً فى الدنيا «أبليس»
ولن تنقصها « حيه » فإن محيط المجتمع من قومى وعالمى يعج ويضج
بالأبالسة والشياطين والحيات والثعابين ، بأحاديثها ومغرياتها ومفترحاتها ..
ولعل ملايين السنين قد علمت المرأة الآن الحكمة .. فلن تنقل
« الخبر » الذى يخرج آدمها الجديد من « الجنة » ! ..



1 0 0 0 0 0 0 4 6 7 9

1- OCT 1986

1- OCT 1986

فهرس

في الدين

١٣٨ . . . جوح الديمقراطية

١٤٠ . . . الايمان بالمثل العليا

١٤٢ . . . داء الكلام

١٤٥ . . . البرنامج أولا

١٤٧ . . . فساد الدولاب

١٤٩ . . . الحرب بكل الأسلحة

١٥١ . . . نعيم الانتخابات

١٥٣ . . . شركة مقاولات الانتخابات

١٥٥ . . . الرئيس

١٥٧ . . . الشحاذون

١٦٠ . . . الأحزاب والشعب

١٦٤ . . . الفكر والشعب

١٦٨ . . . كادر المقامات

١٧١ . . . مصر والشعار الدولي

١٧٤ . . . المعنى الانساني لوحدة ارضى

١٧٦ . . . البعث

١٧٨ . . . دولة العميات

في المرأة

١٨٤ . . . المرأة والمجتمع

١٨٦ . . . المرأة والزن

١٩٠ . . . المرأة والفنان

١٩١ . . . المرأة وأشواقها

١٩٣ . . . المرأة والعظمة

١٩٦ . . . المرأة والحرية

٢٠٠ . . . المرأة والبيت

٢٠٥ . . . سليقة المرأة

١٣ . . . منطقة الايمان

١٨ . . . الدفاع عن الاسلام

٢٩ . . . نجم احمد

٣٤ . . . سر العظمة

٣٩ . . . المرأة في شباب النبي

٤٣ . . . جوهر الدين

٤٨ . . . الخائن

٦٢ . . . النقد

٧٧ . . . بين الخالق والناقد

في الادب والفن والثقافة

٧٩ . . . غايه الأدب والفن

٨٥ . . . الفن والاصلاح

٩٢ . . . منابع الفن المصرى

١٠٠ . . . الثقافة المشرقية

١٠٤ . . . كتلة الروح الشرقى

١٠٥ . . . إحياء الثقافة العربية القديمة

١٠٨ . . . أثر أوروبا في أدبنا الحديث

١١١ . . . الأدب الغربى في الماضى والحاضر

١١٥ . . . كرامة الفكر

١١٨ . . . من النيل إلى السين — ١

١٢٢ . . . من النيل إلى السين — ٢

١٢٥ . . . من مشكلات الفكر

١٢٩ . . . بين جيلين

في السياسة والاجتماع

١٣٥ . . . هستريا السياسة

PJ
7828
K52
T35
1954

11111

RECEIVED JAN 10 1963

